**تحسين علي كريدي**

**زمن الضرورة**

**رواية**

**لسنا مجرد أطفال؛ بل وقود لحروب قادمة**

**تحسين علي كريدي**

**-1-**

**حزيران 2003**

انتشر خبر وصول (موّات) الذي ألقي القبض عليه في بغداد وجيء به إلى مدينة المجر الكبير بسرعة البرق؛ فتداعى سكان القضاء الذين قهرهم وأذلهم وأرسل فلذات أكبادهم إلى غياهب الموت لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام بـالرفيق الحزبي المجبول من نفس طينة إبليس؛ والذي لم تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، فقد تمادى في غيّهِ على الناس، ولم يسلم منه حتى أبوه الذي أعدم بوشاية منه.

كان بوسع أولئك الذين ألقوا القبض عليه إعدامه حيث عثروا عليه في بغداد، مثلما حصل مع كثيرين من أزلام نظام صدام؛ إلا أن الرجل أوغل كثيراً بإجرامه بحق أبناء المدينة؛ لذا فإن لاقتياده وإعدامه قرب جامع الحاج جليل؛ دلالة رمزية كبيرة لأولئك الناس، بأن عدالة الله تطال عتاة المجرمين في الدنيا والآخرة على حد سواء.

أوثقته المجموعة المدججة بالسلاح على عمود للكهرباء، في حين وقف أحدهم على مكان مرتفع وتلا خطبة عصماء ابتدأها بآية من القرآن الكريم (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب).

حدجت في وجه موات، الذي بدا بهيأة مخذولة وفاقداً لأي شعور أو ردة فعل، لربما بسبب الضرب المبرح الذي تلقاه أو رهبة الموقف.

ولا أعلم على وجه التحديد حقيقة مشاعري في تلك اللحظة التي بدأ فيها الرصاص يخترق لحم موات ويرتطم بالعظام ويهشمها؛ فلم أشعر بالأسى لموته ولا بالبهجة أيضاً؛ نظرت إلى الجموع الضاجّة بنزعة الحماسة العمياء وهي تبدي الفرح وتطلق الهتافات (وين اللي حاربك وينه، صدام النذل وينة)؛ أما أنا فلذت بصمت جليل؛ وتساءلت بداخلي: (ما قيمة الحياة التي تكون نهاياتها بائسة، ولا تترك أثراً طيباً خلفهاً)؛ بموته طويت سجل حسابي الطويل مع هذا الرجل، وأضحى منذ تلك اللحظة، مجرد صدى لذكريات عتيقة عالقة في ذاكرتي، ولا مناص من العيش معها لما تبقى من عمري، وللمفارقة الغريبة أني وقبل شهر من اليوم حظيت صدفة بموات، وكنت على وشك قتله؛ لكن إصبعي تراخى عن ضغط زناد المسدس الذي شهرته بوجهه، وأوكلت أمر القصاص إلى الله، وهأنذا أشهد عملية إعدامه على أيدي آخرين.

غشيت تفكيري تلك الحكمة الأثيرة التي توارثتها عن أبي (دوام الحال من المحال)، التي وضعتها نصب عينيَّ خلال المحنة الصعبة التي واجهتني وكدت أفقد بسببها حياتي عندما تعثرت بموات هذا، والحزب المتساوق معه كما لو أنه أبوه؛ في هذه المدينة التي لا يمكنني الادعاء بأني أنتمي لها؛ لأني لم أولد فيها ولم أعش فيها أكثر من عقد من الزمن؛ وأقصد هنا، مدينة المجر الكبير التي تشكلت على ضفتي نهر تمرد على دجلة عند خاصرته اليمنى، جنوبي العراق واستسلم لإغواء انحدار الأرض عند تخوم الهور؛ فنَحَتَ مساره المتعرج على أديمها مع مدار السنين، وتسارع جريان الماء فيه؛ فسمي المجر الكبير، وسميت المدينة على اسمه؛ تطوقها المساحات الخضراء المزروعة بأعواد القصب السكري من كل جانب؛ وكأنها وشاح تلتفع به. ومثلما ترفد دجلة النهر بالماء؛ كانت القرى النائية، وتلك التي تقبع في عمق الأهوار؛ ترفد المدينة بالبشر؛ في هجرات لفلاحين معدمين نبذوا الأرض تحت وطأة سنين عجاف جثمت على أرواحهم، وسطوة الإقطاعيين وتنكيلهم؛ ولكن بعد إنشاء معمل قصب السكر في بداية سبعينيات القرن العشرين، توافد العمال والموظفين من مدينة العمارة، ليستوطنوا القرى السكنية التي أنشئت لإقامتهم، فتشكلت في لحظة عابرة؛ ثقافتان متوازيتان، لتصبح اللكنة المميزة التي تكسر كل حرف يسبق حرف الياء، الشاهد الأكبر على الخط الفارق بينهما.

تفتحت عيناي على الدنيا مع مطلع سبعينيات القرن الماضي لأجد نفسي طفلاً مدللاً لأب يمتلك شركة مقاولات عامة، ونقطن في بيت واسع في حي من أرقى أحياء مدينة العمارة مركز محافظة ميسان، وكانت السيارة التي يقودها أبي من أرقى الموديلات، في زمان كانت السيارات التي تجوب شوارع المدينة، لا تتعدى الخمسمائة؛ وكنا في مواسم الصيف نسافر إلى لبنان أو أوروبا، هرباً من وقدة الحر وللترويح عن النفس؛ كنت صغيراً وقتذاك إلا أن ذاكرتي ما زالت تحتفظ بصور جميلة عن تلك السفرات.

أبي كان متديناً وورعاً وتلك صفة وسِمتْ بها أسرتنا، فجدي الملا محمد كان مؤذن جامع، ويطبخ قدوراً كبيرة للطعام في يوم عاشوراء، وكان يشدد على ابنيهِ الالتزام بالدين وحب آل البيت والابتعاد عن التكسب الحرام؛ وفضلاً عن ذلك كان حكيماً عركته الدنيا؛ فقد استشرف الوضع السياسي في البلد، فكانت وصيته لهما تجنب الانخراط بأمور السياسة وعدم معارضة الدولة، واستخدام أضعف الإيمان لتغيير المنكر؛ بدأ أبي حياته المهنية في محل لبيع المواد الإنشائية؛ وفي منتصف سبعينيات القرن الماضي، أخذ البلد يزدهر بصورة غير معهودة جراء تأميم النفط، وراجت حملة واسعة من الإعمار أغرت أبي للدخول في بعض المقاولات التي أغدقت عليه أرباحاً كبيرة، وغدا مالكاً لشركة مقاولات كبيرة ويمتلك أسطولاً من الآليات والشاحنات، وفريقاً من العمال والمهندسين؛ وحتى مع اندلاع الحرب مع إيران التي حصدت العديد من أقرانه، كان يحصد الملايين، متفادياً الالتحاق بالجيش الشعبي بدفعه أموالاً طائلة لأطباء أصدروا له شهادة طبية تؤكد أنه يعاني من انزلاق في العمود الفقري، بيد أن الحرب طال أمدها، ومع بلوغها عامها الثالث، أخذت المشاريع تتضاءل، ثم توقفت أعماله مدة طويلة، وكانت إنسانيته تمنعه من تسريح العاملين في الشركة، فأبقى رواتبهم تجري كما في السابق دون نقصان، ويردد:

* هؤلاء مساكين وأصحاب عائلات ولا يملكون غير رواتبهم، العوض على الله.

وذات يوم رست عليه مناقصة كبيرة لصالح وزارة الدفاع، لبناء مخازن محصنة للعتاد العسكري؛ بعد أن اضطر لدفع رشوة فُرضتْ عليه؛ مع أن هامش ربحها كان ضئيلاً؛ ولكن طبقاً لحساباته؛ فإن مجرد تغطية أجور الموظفين، هو مكسب بحد ذاته؛ وكان يأمل بأنها ستكون مقدمة لأعمال أخرى سيجني من ورائها أموالاً في قابل الأيام.

كان يتغيب عنا كثيراً، كي ينهي العمل قبل نفاد الوقت فيترتب على ذلك غرامات جزائية، وهكذا جرى البناء حسب الجداول الزمنية المشروط عليها ضمن العقد، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فقبل شهر من انجاز العمل بشكل نهائي اخترقت الفضاء طائرة إيرانية، وألقت بحمولتهما من القنابل والصواريخ على المخازن وسوَّت البناء مع الأرض؛ ولأن ذلك حدث قبل تسليم العمل فإن الضرر تحمله أبي لوحده دون تعويض؛ كانت الخسارة كبيرة وقاسية فأصابته كآبة حادة لزم على إثرها البيت معتكفاً في غرفته ومثقلاً بالهموم، وذات يوم طُرِقَ الباب فذهبت لأرى من الطارق؛ كان ضابطاً ترجل من سيارة تيوتا لاندكروز عسكرية وسألني:

* أين أبوك؟

لم أرد عليه؛ بل ركضت لأنادي أبي وقلت له:

* الشرطة يسألون عنك.

وكنت أحسبهم من الشرطة، نهض والدي يجر نفسه جراً وتبعته كفصيل يتبع أمه؛ سلّمه الضابط قراراً بالإنذار لتأخره في الإنجاز طبقاً لبنود العقد المبرم، وأبلغه بأنهم سيبدؤون باحتساب غرامات جزائية عن كل يوم تأخير، وليس ذلك فقط؛ بل سيعرض نفسه للقضاء كذلك.

راجع أبي مسؤولين كباراً في الدولة وشرح لهم وضعه؛ وأنه لم يعد يمتلك سيولة نقدية؛ بل إنه مَدينٌ لبعض مجهزي المواد الإنشائية بالمال؛ لكن تظلمه ذهب أدراج الرياح، وكان الجواب واحداً في كل مرة، وكأن الجميع تصالحوا عليه: (نحن في حالة حرب).

أمام هذا الوضع الحرج لم يتبقَّ لديه من خيار، غير أن يبيع جميع الآليات التي يمتلكها؛ وهي أيضاً لم تفِ بسد جميع النفقات فاضطر لاحقاً لبيع بيتنا الجميل، وسكنّا في بيت مستأجر؛ كان أبي في سباق محموم مع الزمن كي يقلل من الغرامات التأخيرية التي أخذت تتراكم عليه، وعندما حلَّ موعد تسليم المشروع، كنا قد استنزفنا حلّي أمي كلها عدا حلقة الخطوبة التي عزَّ عليها التخلي عنها؛ فهي ليست مجرد حلية ذهبية تتجمل يدها بها؛ وإنما هي الخطوة الفارقة في حياتها، وإعلان ارتباطها بشريك روحها الأبدي.

كانت وطأة تلك الخسارة الفادحة كبيرة على أبي؛ وذات يوم شعر بضيق شديد يطبق على صدره، فقرر أن يسافر إلى بغداد ويزور الإمام الكاظم الذي يدعى بباب الحوائج ويشكو همه إليه؛ دخل والدي إلى الروضة الكاظمية وبينما همَّ بقراءة دعاء الزيارة للمرقد، أخذت الحروف تتداخل مع بعضها، لتشكل الأسطر خطوطاً سود ثم تفاقم السواد حتى لم يعد يرى غير عالم أسود، فصرخ صرخة مدوية:

* يا عالم يا ناس عيوني ما أشوف بيهن، يا عال....

ثم أغمي عليه.

ذكر لنا أبي ما حلَّ به قائلاً: (خلال غيبوبتي كنت أشعر بسكون غريب من حولي يقطعه من حين لآخر صوت أشبه بنزول قطرات ماء من صنبور، كنت أسمع صوت ارتطام القطرة بالأرض بوضوح فائق ومفزع، ولم يكن بوسعي تحريك أي شيء من جسمي، ثم فجأة يميّز بصري طيفاً أبيض يدنو مني شيئاً فشيئاً، ليتضح لي أنهما شخصان بملابس بيض يحمل أحدهما سجلاً كبيراً لم أر مثله في حياتي؛ توقفا عند رأسي، وقال الأول للذي يحمل السجل الكبير:

* افتح صحيفة إبراهيم ملا محمد، لنرى حسابه.

فرددت عليهما مذعوراً وكلّي يقين أن الله قد قبض روحي وهذان هما ملكان أتيا ليحاسباني:

* أقسم برب العزة أني أمضيت حياتي صائماً مصلياً ومزكياً؛ أخرج الخمس من أموالي وأتصدق للفقراء وموالياً لآل البيت، جنيت مالي بعرق جبيني وبشرف.

أنصتا إلى كلامي وهما يتصفحان السجل ثم قال الأول:

* ألم تدفع رشوة لترسو عليك مقاولة بناء مخازن العتاد؟
* ولكني فعلت ذلك وفقاً للقاعدة الشرعية التي تقول ((الضرورات تبيح المحظورات))؛ ولم يكن القصد من ورائها التربح؛ بل توفير رواتب الموظفين.
* ألم يخطر على بالك، أنك بتلك المقاولة أعنتَ الظالم؟
* كيف!؟
* ألا يستخدم صدام مخازن السلاح تلك في حربه الظالمة التي أطلق عليها قادسية صدام ضد الجمهورية الإسلامية!؟
* بلا!

انعقد لساني ولم أحر جواباً؛ وظننت أني هالك في الدرك الأسفل من النار، وفجأة قال الأول للثاني:

* انظر إلى ما مكتوب في الأسفل، لم تحن ساعته بعد، لندعه ونحاسب الآخر.

ثم فجأة يعود إليَّ وعيي على إثر صرخة امرأة فجعت برحيل زوجها الذي كان يرقد على السرير المجاور لسريري في غرفة العناية الفائقة في المستشفى).

تغير حاله بعد تلك الرؤيا، وأضحى كشخص عائد من بين كفي الموت؛ وأضحى زاهداً بالدنيا؛ ومنقطعاً للصوم وقيام الصلاة، وكان يردد دائماً، جواب الإمام علي عليه السلام، عندما سئل عن الدنيا (وما أصف لك من دار من افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب)؛ ولو أنه امتلك الخيار؛ لكان كافياً عليه المكوث في صومعته يتعبد ويناجي ربه؛ ولكن توجب عليه إعالتنا -أمي وأخي موسى وأختي مريم وأنا- لذا رضي العمل بصفة سائق في مصنع السكر في قضاء المجر الكبير، والذي أغراه بذلك الانتقال العكسي هو حصوله على أحد منازل الشركة التي تؤجر للمنتسبين لقاء مبلغ رمزي؛ وكنا راضين بحياتنا الجديدة على تواضعها؛ ولكنها وضعتنا منذ أول يوم باشر فيه أبي الدوام، في طريق الرفيق موات الذي كان موظفاً بذات الوقت في معمل السكر؛ والذي تربص بأبي ليسوقه في أحد قواطع الجيش الشعبي، فكان يتملص منه بشتى الطرق؛ ولكن القدر لم يكن على وفاق مع أبي على ما يبدو، فبسبب المعارك الطاحنة الدائرة منذ أربع سنوات، التي كانت تهرس الجنود، وولائمها التي لا تشبع؛ جرى استدعاءه لأداء خدمة الاحتياط.

**-2-**

**أبـي**

سمعت دعوة مواليدي للالتحاق بالجيش عبر الإذاعة، فوقع عليَّ كالصاعقة، فهي عندي بمثابة الخطو نحو الموت بحرب لا شرف فيها ولا كرامة؛ بل لأجل صنع مجد للرجل الذي افتعلها وسماها باسمه -قادسية صدام- فوفقاً للرؤيا التي علقت في وجداني؛ كان يشق علي إعانة الظالم، ومن طرف آخر لا يمكنني التملص منها بأي حال من الأحوال، فعقوبة التخلف عن أداء الخدمة هي الإعدام، عشت في دوامة وصراع مع الذات؛ إلا أن بعض العزاء لي هو أني خدمت بصفة سائق سيارة إسعاف في إحدى المفارز الطبية في الجبهة؛ فعلى الأقل، أن مهمة إنقاذ حياة الجنود؛ مهمة إنسانية.

ومر عام عليّ وأنا في خضم تلك الحرب الشرسة، بين أشلاء الجنود المقطعة وجراحاتهم النازفة وصرخات الألم والوجع التي كانت في كثير من الأحيان تخمد قبل بلوغ المستشفى الميداني؛ مشاهد أولئك التعساء الذين قطفت يد الموت زهرة أعمارهم، أو تركتهم يعيشون بأجساد منقوصة؛ كانت تكتنز في روحي وتنخر قلبي، ولا شيء بوسعه إفراغ تلك المشاهد التي تثقلني بالهموم سوى العودة إلى البيت بإجازة، حينها أعفر روحي بحنان زوجتي وأولادي وأمسِدُ وجوههم بشغاف القلب.

مازلت أتذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه مجازاً لآخر مرة، كان العيد على الأبواب، إلا أني لن أكون معهم خلاله، فإجازتي ستنتهي قبله بيومين، اصطحبت أولادي إلى السوق الكبير في مدينة العمارة، موسى ابني البكر الذي كان في المرحلة الثانية من كلية الهندسة في جامعة البصرة والذي عاد إلى البيت وقتذاك، وعيسى الذي يبلغ الرابعة عشرة من العمر ومريم آخر العنقود التي كانت في العاشرة، فضلاً عن شريكة حياتي؛ اشتريت لهم ملابس العيد، وقبل أن ألتحق بوحدتي؛ عانقتهم فرداً فرداً وأوسعتهم تقبيلاً ثم أفردت ذراعيَّ وضممت أولادي الثلاثة كطائر يحوط أفراخه بجناحيه؛ أوصيت زوجتي على أن ترسم البهجة على قلوبهم وتسعدهم خلال أيام العيد، مثلما كنت أفعل معهم في الأعياد السابقة.

بعد أسبوع من التحاقي؛ قُصفت الجبهة الأمامية بعدد مهول من القذائف إيذاناً بحدوث هجوم لاحق لا يشترط بالضرورة أن يكون على جبهتنا، فلربما تكون نيتهم خرق قاطع آخر، وأن القصف علينا هو للتمويه أو إشغال قوات الاحتياط بأماكن أخرى غير مقصود مهاجمتها؛ إلا أن الهجوم الكبير حدث، وقاطعنا هو المستهدف؛ كان هجوماً عنيفاً استمر ثلاثة أيام، لم أذق طعم النوم خلالها إلا لفترة وجيزة بسبب عدد الجرحى المهول الذين سقطوا خلال تلك المعارك؛ كنت أقود سيارة الإسعاف ذهاباً وإياباً، بسرعة جنونية عسى أن يسهم ذلك بإنقاذ أرواح من كانوا ينزفون جراء إصابات متوسطة؛ تكون في أغلبها عند الأطراف والتي يضطر الأطباء في كثير من الحالات لبترها بسبب الزخم الكبير، أما الإصابات الحرجة فهي ميؤوس منها، إلا من كتب الله لهم الحياة.

في اليوم الرابع أحدثت القوات المهاجمة خرقاً في محاور عديدة من الجبهة، وأخذت القطعات العراقية تتراجع حتى وصلت إلى منطقة إخلاء الجرحى التي تكون عادة عند مسافة آمنة نسبياً من خطوط الاشتباك، ورغم النيران والقذائف التي كانت تنهمر من حولي كالمطر؛ إلا أني تمكنت من وضع عدد كبير من الجرحى في سيارتي لإخلائهم؛ كنت على وشك الانطلاق بسيارة الإسعاف عندما اقترب مني جنديان مستجدان صغيران في السن كانا يرتعدان من الخوف ومشاهد الموت التي علقا وسطها، وترجياني أن أخليهما إلى الخطوط الخلفية كي لا يأسرهما الإيرانيون الذين باتوا قريبين بشكل واضح؛ نظرت إليهما نظرة مشفقة ومترددة في ذات الوقت، لما قد يسببه ذلك من عقوبة لي؛ إلا أن الشفقة غلبتني على أمري عندما تخيلت أن الذَين أمامي هما ولدَيَّ موسى وعيسى، فأركبتهما معي وانطلقت عائداً إلى المستشفى الميداني.

كانت ثمة قنطرة مقامة على نهرٍ جافٍ يجري في موسم الأمطار فقط؛ ينبغي عبورها؛ وقبل بلوغي تلك القنطرة بعدة أمتار؛ كبحت فرامل سيارة الإسعاف بقوة؛ بعدما تفاجأت بجنديين إيرانيين كانا يقودان دراجة نارية مقبلَين نحو القنطرة من ناحية اليمين؛ كانا على بعد ثلاثمائة متر عنا، توقفا عندما شاهدا سيارتنا، وترجل أحدهما وهَمَّ بتسديد قاذفته نحونا؛ في تلك اللحظة راودني إحساس بأن رحلتي في هذه الدنيا قد أزفت نهايتها، فتلوت الشهادتين؛ ولكن وبصورة غير متوقعة، منعه الجندي الآخر من الإطلاق، وأشار لنا بأن نمضي في سبيلنا؛ ولم أصدق أبداً أن ثمة أشخاص في ظل هذه الحرب الضروس، يطبقون القوانين الدولية التي تنص على عدم التعرض لسيارات الإسعاف؛ لكن فرحتي بالنجاة لم تدم سوى ثوانٍ معدودة، فبعد أن تجاوزنا القنطرة بنحو نصف كيلومتر تفاجأنا بمفرزة إعدام الجنود الفارين من المعركة أو إرغامهم على الرجوع لخطوط الاشتباك؛ في مرات سابقة كانوا يتركوني أمر بعد التحقق من أني أنقل الجرحى فقط؛ وهكذا فعلوا هذه المرة؛ فتش أحدهم حمولتي، ثم تطلع في الجنديين اليافعين، وسألهما:

* أنتما! إلى أين ذاهبان؟

عقد الهلع لسانيهما، ولم ينطقا بحرف واحد، فتداركت الموقف وجاوبته بالإنابة عنهما:

* إنهما من أفراد المفرزة الطبية.
* أنت تكذب! إنهما فاران من المعركة، وأمامك خياران لا ثالث لهما؛ إما أن ننفذ فيهما الإعدام الميداني، أو تعيدهما من حيث أتيت بهما.

توسلت به ليتركوني أوصل الجرحى أولاً؛ لأنهم سيموتون حتماً؛ وأعلمته أن القنطرة سقطت بأيدي الإيرانيين؛ إلا أنه رفض الإصغاء إلي، وأطلق عدة رصاصات فوق رأسي؛ ثم حدث شيء غير متوقع، عندما سحب أحد الجنديين اليافعين بندقيته وأطلق النار على مفرزة الإعدام، ولابد أنه أقدم على هذا التصرف الجريء والمتهور مدفوعاً بنزعة التشبث بالحياة.

لم تتوقع المفرزة ردة الفعل تلك، ففي العادة كانوا هم من يطلقون النار على الجنود الفارين؛ فهرولوا للاحتماء خلف سيارتهم العسكرية ثم شرعوا بإطلاق النار علينا؛ بينما اندفعت بسيارة الإسعاف عائداً باتجاه القنطرة، والتي توقف الجنديان الإيرانيان عندها، وشاهدا كل ما جرى لنا، فأطلقا صاروخ قاذفة صوب مفرزة الإعدام التي ولَّت هاربة.

كان الذهول يتلبسني، فقد أضحينا عالقين في المنتصف بين موت على يد صديق متوثب لحصاد أرواحنا، وعدو يتهيأ لخطف حريتنا، لا أدري كيف خطر على بالي قول طارق بن زياد ’’العدو من أمامكم والبحر من ورائكم‘‘ ويا لها من مفارقة غريبة أن يكون العدو خير الشرين؛ ترجلت من السيارة ورفعت ذراعيَّ إشارة مني بالاستسلام فأشارا لي بعبور القنطرة والانحراف يساراً لغاية بلوغ مفرزة إيرانية متقدمة قامت بأسرنا.

وهكذا أمضيت خمسة أعوام من عمري وحيداً في كنفِ السجانين؛ مثخناً بآلاف الذكريات والخيبات، بلا أدنى أمل أو رجاء بالعودة إلى عائلتي ولا سيما بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

من يصدق أن السلام لم يرجعنا إلى أهلنا، بل أن حرباً أخرى فعلت ذلك، عندما غزا العراق دولة الكويت عام 1990 وحاول التقرب من إعدائه السابقين طمعاً بمؤازرتهم على قاعدة "عدو عدوي؛ صديق" وكنت ضمن قوائم الوجبة الأولى في عملية تبادل الأسرى؛ إلا أن فرحتي بالعودة، أجهضها قلقي على أبني موسى.

**-3-**

**أخي موسى -الحرب مع إيران**

كنت في المرحلة الثانية من الكلية عندما أسر أبي؛ وهو الذي حال بيني وبين أن أخلفه في مهمة رعاية الأسرة؛ ولكن لحسن الحظ تحمل ذلك الوزر، أم عظيمة وأخ راجح العقل رغم سني حياته الست عشرة؛ وحتى بعد تخرجي في كلية الهندسة الميكانيكية عام 1987، لم أحظ بذلك الدور؛ إذ ساقوني إلى دورة الضباط الاحتياط ومدتها سبعة أشهر وتخرجت منها برتبة ملازم ثان عام 1988، كانت نار الحرب مع إيران ما تزال مستعرة ولا أحد يعرف متى وكيف ستضع أوزارها، فعند قيامها، كان ثمة تصور أنها مسألة أيام أو بضعة شهور، وها نحن اليوم في عامها الثامن، ودفعنا اليأس للتخلي عن أفق التفاؤل، وترسخ في نفوسنا اعتقاد بأن آجالنا ستنقضي قبل أن ندرك خط النهاية لتلك الحرب المجنونة.

بعد الدورة أرسلوني إلى الخطوط الأمامية من جبهة شرقي البصرة، وكانت الأقدار رؤوفة عليَّ، لأني شهدت نهاية الحرب بعد عدة أشهر، ففي ساعة متأخرة من الليل سرى خبر إعلان انتهاء الحرب، فانتابت الجنود الرابضين على طول خط الجبهة، موجة فرح هستيري، كنا غير مصدقين أن الحرب انتهت؛ لم نَتَحرَّ من انتصر فيها، أو هل حققت الأهداف التي أججتها، فقد أغضى الجميع الطرف عن كل ذلك؛ فالمهم هو أننا تخطينا عتبة الموت المتربص بنا كل يوم على مدار ثماني سنوات مهلكات؛ وزهقت فيها أرواح شباب بعمر الورد، وأجهضت أحلامهم.

تلك الليلة توهجت العتمة بنيران الأسلحة التي صوبها الجنود من كلا طرفي النزاع إلى السماء وكأنهم يحاربون كائنا فضائياً غزاهم؛ وفي صبيحة اليوم التالي جاءت الأوامر لنا بالتقدم عبر الأرض الحرام الفاصلة بين الجيشين ومسك حدودنا الدولية التي تبعد عن موقعي نحو كيلومترين، فحملت الخرائط اللازمة وعلامات دلالة لتثبيتها على خط الحدود، والأهم من ذلك أني اصطحبت جنوداً من الهندسة لشق طريقنا النابت بالألغام والصواريخ غير المنفلقة، فتلك المنطقة كانت مسرحاً لعمليات زرع الألغام ومصائد المغفلين لكلا الطرفين؛ سرنا في طابور خلف جنود الهندسة الذين حذرونا من خطورة الانحراف عن خط السير الذي يشقونه لبلوغ وجهتنا، ومع اقترابنا من الحدود لمحنا جنوداً إيرانيين مكلفين بذات مهمتنا؛ وعلى غير اتفاق توقفنا نحن وهم بتوجس وترقب، فليس من اليسير أن يتخلى المرء عن غرائزه وحذره من عدوه بين ليلة وضحاها؛ مرت لحظات صمت قبل أن يبادر قائد المجموعة الذي كان مثلي -برتبة ملازم ثان- ورفع يده ملقياً التحية، وكان ذلك كفيلاً بإذابة جليد التوتر بيننا؛ بعد تثبيت العلامات، تراجعنا بحدود خمسين متراً إلى الخلف وأقمنا موقعاً ثابتاً لنا، وهم فعلوا الشيء ذاته.

ذلك اليوم عملت فرقة الهندسة من دون كلل في حصاد الألغام وأزالوا المئات منها؛ بعضها مخصص للآليات وأخرى مخصصة للأفراد، ولا سيما ألغام (فيلمورا 69) سيئة الصيت التي تسببت بفقدان آلاف الجنود لأطرافهم السفلية.

كنا نميز بوضوح أصوات الإيرانيين وضحكاتهم؛ كانوا أكثر مرحاً وبهجة منا؛ لربما لأنهم جميعاً شباب في أعمار متقاربة، فتفوقهم في عدد السكان، وكذلك العقيدة الثورية التي رفدت الجبهة بمئات الآلاف من المقاتلين الشرسين، منحهم أريحية في تحديد مدة الخدمة العسكرية بثلاث سنوات فقط، على عكسنا تماماً، فقد فكنا خليطاً غير متجانس من كهول وشباب، بعضهم خدم في الاحتياط طيلة مدة الحرب فضلاً عن الخدمة الإلزامية؛ كان الأكبر سنّاً بيننا، ضابط صف اسمه زيارة، تخطى الخمسين من عمره، تطوع في الجيش منذ العهد الملكي، وشارك في حرب عام 1967 مع الكيان الصهيوني على جبهة الأردن، وسوريا عام 1973، تلاها القتال مع فصائل البيشمركة في شمال العراق، وكان يصف نفسه أنه بسبعة أرواح؛ أما أصغر الجنود سنّاً فاسمه غالب كان في الثامنة عشرة من عمره؛ لم ينهِ الابتدائية، وكان محظوظاً مثلي -هكذا اعتقدت- لأن وقف إطلاق النار تزامن مع أول يوم من التحاقه بالجبهة؛ سألته عن سبب تسربه من المدرسة، فسرد لي حكايته الظريفة، قائلاً:( كنت أعين والدي في ورشة تصليح السيارات منذ صغري، فوالدي كان يردد دائماً "صنعة في اليد، أمان من الفقر" وعندما صرت في السادس الابتدائي، كانت لدي خصلتان؛ الأولى أني كنت بليداً جداً في الدراسة، لانشغالي عن مراجعة دروسي بالعمل في الورشة، والشيء الثاني أني كنت قوي البنية وشب عودي لأني دخلت في سن البلوغ؛ كنت بمثابة عملاق في نظر أقراني التلاميذ وذات يوم وفي درس الرياضيات تحديداً، دعاني المعلم لحل مسألة عند السبورة، ولم أفلح في الحل كالعادة، فانهال عليَّ بسيل من الكلمات مثل (غبي، زمال، دماغ سز) كلمات تعودت أن ينعتني بها الأساتذة، ولا سيما معلم الرياضيات الذي يمقته كل تلاميذ صفنا؛ ولكن الشيء الذي أخرجني عن طوري هو أنه صفعني، -قلت لك سيدي أني كنت قوي البنية- فقمت بلكمه وأسقطته أرضاً وأنا أكيل له اللكمات وهو يستغيث، أما التلاميذ فاكتفوا بالتفرج علينا وبداخلهم كانوا مسرورين لما ناله المعلم سليط اللسان، ولم يخلصه مني إلا فراش المدرسة الذي كان يمر قرب الصف، وعلى إثرها فصلوني من المدرسة، فارتحت وأرحت).

قبل مغيب الشمس قَسّمتُ واجبات الحراسة الليلية وكلمة السر، وعند فجر اليوم التالي استيقظت على صوت أحد الإيرانيين وهو يرفع الأذان بصوت شجي ولكنةٍ أعجمية على مقام دشت، بعدها أتموا صلاتهم وأعقبوها بدعاء الصباح الذي كنت أعشقه وأحفظه عن ظهر قلب؛ فرددته معهم، ومنذ تلك اللحظة تملكني فضول شديد لمعرفة هؤلاء القوم الذين كانت ولغاية ساعات قليلة؛ تردنا منهم رسائل مغلفة بالموت.

بعد أن أتممت صلاتي بدقائق جاءني نائب ضابط زيارة، حاملاً بندقية كلاشينكوف، وقال:

* سيدي هذه بندقية غالب، وجدته نائماً في نوبة حراسته، وسحبتها من بين ذراعيه دون أن يشعر أو يتنبه.
* حسنا، استدعه ليمثل أمامي.

فكرت بنوع العقوبة التي سأصدرها بحق غالب؛ ففي قرارة نفسي لم أكن راغباً في معاقبة ذلك الفتى الغر ولا سيما وسط هذا الهدوء الذي هبط علينا هدية من السماء، والذي لم نكن نحلم به؛ ولكن على أي حال كان عليَّ إرضاء نائب ضابط زيارة الذي يتنفس الأوامر والواجبات العسكرية وتسري في عروقه، كي لا يحسب تهاوني انتقاصاً لمكانته أمام الجنود.

جاء غالب بخطوات متعثرة يمشي خلف زيارة، وأدى التحية، فسألته بلهجة حازمة:

* لماذا نمت أثناء الواجب؟ ماذا لو تسلل العدو حينها وقضى علينا جميعاً؟ عندما تسلمت الواجب، فإن رقابنا أمست في عهدتك!
* سيدي أقسم بالله أني كنت مستيقظاً، لغاية اللحظة التي أخذ فيها ذلك الإيراني بقراءة الدعاء، فصوته كان عجيباً وكأنه غير صادر عن إنسان بل عن ملاك، شعرت وكأني طفل تهدهده أمه ليغفو؛ فغفوت.
* مع ذلك ينبغي معاقبتك؛ إبرك وانهض عشر مرات وأنت ترفع البندقية.

صوبت نظري إلى وجه زيارة؛ فلاحظت عدم الرضا بادياً عليه، فتلك العقوبة كانت أقل مما توقعه على أغلب ظني، فأردفتها بعقوبة ثانية وهي أن يركض مائة متر ثم يعود، وحذرته من تخطي العلامات التي وضعها فريق الهندسة كدلالة عن الأماكن غير المطهرة؛ حينها كان الظلام ينحسر تدريجياً في الأفق ويتكشف ضياء الفجر، ذهب غالب مهرولاً، وأوكلت متابعته لزيارة، وذهبت لأواصل نومي لساعة أو اثنتين قبل أن تشتد حرارة الشمس وتجبرني على مغادرة الفراش؛ ثم فجأة؛ سمعت دوي انفجار شق سكون الأرجاء:

* يا إلهي إنه غالب، لقد تعثر بلغم أرضي.

هرولت ومعي الجنود الذين استيقظوا مفزوعين، قبل أن يعوا أنه حادث، لا أن الحرب عاودت ثانية، فوجدناه فاقد الوعي وقدمه اليمنى مبتورة وعظم ساقه بائن، وملابسه تلاشت جراء العصف، فأجرينا له الإسعافات الأولية ونقلناه إلى طبابة الفوج؛ كان زيارة يبكي بحرقة جراء تبكيت الضمير ويشعر بأنه المتسبب بما جرى، وأبى إلا أن يرافقهم.

عدت أدراجي إلى نقطة الحراسة؛ ونظرت إلى المقلب الآخر من الحدود فلمحت الملازم الثاني واقفاً وهو يحمل منظاراً، ومن المؤكد أنهم شعروا بالقلق أيضاً عندما سمعوا صوت الانفجار، قبل أن يتبينوا حقيقة ما جرى.

ضحى ذلك اليوم لمحت الضابط الإيراني وهو يقترب من خط الحدود، كان يرتشف كأساً من الشاي، وعندما تلاقت نظراتنا ألقى عليَّ التحية:

* سبه بخير
* صباح الخير.

أومأ إليَّ بكأس الشاي، وفهمت أنه يدعوني لمشاركته شرب الشاي، كانت مبادرة طيبة منه ومربكة في ذات الوقت؛ ترددت قليلاً قبل أن ألبي دعوته لأني خشيت أن يكون ذلك مخالفاً لتعليمات الجيش، وقد يتسبب لي بمساءلة من قبل الاستخبارات العسكرية، إلا أني لست متأكداً تماماً ما تنص عليه تلك التعليمات؛ عندما اقتربت منه مدَّ لي يده مصافحاً، وقدم لي كأس الشاي الذي كان باهت اللون ولم استسغ مذاقه فطريقة إعدادهم له مختلفة تماماً عنا؛ تحدث معي وبدا أنه يسألني عن الحادث، فأومأت له بيدي كناية عن بتر قدمه، فبان على وجهه التأثر وقال:

* خيلي متأسفم

بعدها سألني عن اسمي:

* اسمي موسى إبراهيم.

فغر فاهه وهو يحدق في وجهي متفاجئاً:

* اسم من هم موسى است!

كانت تلك مصادفة نادرة، وفكرت مع نفسي كم هي كثيرة تلك الخصال المتشابهة التي تربطنا مع الطرف الآخر من الجبهة، ورغم ذلك تقاتلنا لثماني سنوات حصدت شبابنا وأعمارنا حصداً، أخبرني أن اسمه على اسم الإمام موسى الكاظم، تحدثنا عن أشياء كثيرة، بعضها تعذر عليَّ فهمه، قال إنه يهوى جمع العملات الأجنبية؛ فأعطيته فئات نقدية معدنية وأخرى ورقية من فئة الربع والنصف دينار، ومع الوقت انضم إلينا جنود إيرانيون آخرون قادهم الفضول لذلك؛ فارتأيت العودة إلى نقطتي.

في اليوم التالي دعوت موسى لزيارتي، فلبى الدعوة مع عدد من جنود نقطة الحراسة، أحدهم من عرب الأحواز كنا نستعين به، كلما تعثر فهمنا لما يريد أن يقوله الآخر، تحدث موسى عن أمنية حياته وهي زيارة العتبات المقدسة في العراق، وأن الإيرانيين حباهم الله بوجود مرقد ثامن الأئمة المعصومين في مشهد؛ حكى لي عن خطيبته التي سيتزوجها في أول إجازة له، فهنأته على ذلك؛ أما أنا فخطر على بالي، أبي الذي لم تردنا منه غير رسالة واحدة عبر منظمة الصليب الأحمر، فقلت:

* أبي أسير عندكم في معسكر آراك منذ ثلاث سنوات، وأخباره منقطعة عنا منذ قرابة عامين ونصف، فهل بوسعك تقصي أخباره؟

قال بنبرة ودودة:

* إن شاء الله، عندما أذهب مجازاً، سأعتبره وكأنه أبي.

مر أسبوع وتوطدت العلاقة بين جنود نقطتي الحراسة؛ وتصادف أن الأحوازي تعرف على جندي من فصيلي كانت تربطه به قرابة دم؛ تسامرنا وشكلنا فريقين لكرة القدم، وتبارينا كل يوم، بعد أن تخف وقدة الحر وسرعان ما نسينا أهوال الحرب الماضية وقساوتها.

كانت الشمس تهبط رويداً رويداً مقتربة من خط الأفق، وزحف الظلام وغشى الأرجاء؛ كنا قد انتهينا لتونا من مباراة كرة القدم، فاستأذن مني موسى ليعود إلى نقطته ليتهيأ لصلاة المغرب، وقبل أن ينهض للمغادرة، سمعت هدير سيارتَي جيب عسكريتين يغذان السير نحونا، وسرعان ما توقفتا عندي وترجل منها ضابط استخبارات الفرقة بسحنته الصارمة مع مجموعة من جنوده وهم يشهرون أسلحتهم في وجوهنا؛ انتابني فزع كبير وكل ظني أنهم أتو من أجلي لارتكابي مخالفة بناء علاقة مع الجنود الإيرانيين؛ غير أن الأمور ذهبت إلى منحى آخر؛ ففوهات البنادق توجهت نحو صدور الجنود الإيرانيين، ثم أقدم جنود الاستخبارات على وضع الأصفاد في أيديهم، بينما أمرني الرائد أن أتولى وضع الأصفاد في يدي الملازم الثاني موسى؛ لم أكن مصدقاً ما يجري، وانتابني غضب عارم، أنساني تحفظي، وقلت للضابط مستنكراً:

* سيدي، لم هذا الإجراء؟ ألم تنته الحرب؟ ثم أنهم ضيوف عندي!
* نفذ ولا تناقش، إنها أوامر عليا! لقد تخطوا الحدود الدولية الفاصلة بيننا وهذا يعد خرقاً لبنود وقف إطلاق النار، وأنت باستضافتك لهم اقترفت ذنباً كبيراً؛ إلا أني سأتغاضى عنه، وسأكتب في تقريري الذي سأرفعه بأنك استدرجتهم، لأجنبك العقوبة.

عندها أسقط في يدي وتيقنت أن لا مناص من تنفيذ الأوامر، فعدم امتثالي سيكون جزاؤه الإعدام بالرصاص كما هو متعارف عليه في تلك المواقف، كان عقلي يحاول البحث عن تبرير وأعذار مناسبة لرضوخي لذلك الفعل الشنيع، فدفعني إلى الظن بأن الأمر لربما سينتهي بعد إجراء تحقيق معهم، ثم يفرج عنهم بعدها؛ كانت يداي ترتجفان عندما وضعت الأصفاد في يدي موسى متفادياً نظرات العتب التي كانت تلوح في عينيه، تمنيت لو أن الرائد أعفاني من تلك المهمة التي بقي ضميري يعاني من التبكيت كلما تذكرتها، وكم تمنيت أن جنود نقطة الحراسة الإيرانية تنبهوا لما جرى لضابطهم وبقية رفاقهم وهبوا لنجدته؛ ولكن الظلام حينها اختلط على الأرجاء ولم يدركوا ما جرى إلا بعد أن أرسلت جندياً قرب خط الحدود، ليبلّغ الإيرانيين، ويحذرهم من اجتياز الحدود بعد الآن، لاحقاً تتبعت أخبار موسى وجنوده، وعلمت أنهم عدّوهم أسرى حرب.

لم يخطر على بالي أن اجتياز بضع عشرات من الأمتار، بحسن نية ستجهض أحلام سَميّي موسى بالزواج من خطيبته أو من فرصة الحصول على معلومات تخص أبي؛ كان موقفاً مؤلماً ترك في وجداني ذكرى موجعة تخطت كل مشاهد الموت وأجساد الجنود القتلى الذين مزقتهم شظايا القنابل والصواريخ.

**-4-**

**أخي موسى- غزو الكويت**

الرئيس الذي خلع بزته العسكرية بعد توقف الحرب مع إيران، والذي عده انتصاراً على غريمه الخميني؛ لم يلبث طويلاً حتى ارتداها كرَّةً أخرى ليغزوا الكويت، تحديداً بعد عامين من ذلك التاريخ، وهكذا وجدت نفسي عند خطوط القتال الأمامية التي تواجه قوات التحالف على الحدود السعودية مع الكويت.

جاءتنا أوامر مشددة بعدم الانسحاب تحت أي ظرف، ورأينا خطاب الرئيس وهو يؤكد على ذلك ويقول: (لا تنسحبوا حتى لو سمعتموني أدعو لذلك)؛ غير أني كنت أقرأ وجوه القادة المحترفين الذين خاضوا معارك عديدة خلال الحرب مع إيران؛ وهي تبدي علامات الاستهجان والتشكيك بقدراتنا على المواجهة والصمود أمام كل تلك الآلة العسكرية التي حشدها العدو لقتالنا، وأنهم زجوا بمعركة غير متكافئة، لن تنجوا منها هامات الرجال؛ ولكن لا أحد يجرؤ على التفوه بما يختلج في صدره، بينما كنا -نحن الضباط الأدنى رتبة- نتهامس في ما بيننا مستشرفين الخطر المقبل علينا.

لم يكن أمراً مستحيلاً في ذلك المكان الموحش من الصحراء؛ ووسط تلك الصرامة العسكرية؛ أن يرشدك إحساسك إلى شخص يماثلك في الأفكار والمشاعر؛ وكان النقيب الاحتياط محمد أمين هو ذلك الشخص بالنسبة لي؛ تخرج عن كلية الإدارة والاقتصاد وسيق لدورة الضباط الاحتياط، وشارك في الحرب مع إيران من ألفها إلى يائها، ثم تسرح بعدها لعام واحد ذاق فيها حلاوة الحياة المدنية موظفاً في معمل السجائر، وها هو اليوم يرتدي البزة العسكرية ثانية؛ ذات ليلة خرجنا نتمشى وسط العتمة والسكون اللذين يطبقان على الأرجاء؛ وكانت النجوم ترصّع السماء التي بدت خالية من السحب، توقف محمد أمين وأشار إلى السماء قائلاً:

* انظر، هل ترى ذلك الضوء الذي يبدو وكأنه نجمة تتحرك؟ إنها طائرة آواكس للتجسس! بمقدورهم وهم على ذلك البعد وفي هذه العتمة؛ أن يميزوا الرتب التي نحملها، فأنى لنا محاربتهم؟
* لعلها مجرد لعبة للضغط، وستنهي الدبلوماسية الأمر في اللحظة الأخيرة!
* أتمنى ذلك من كل قلبي، الحرب ليست نزهة، ثمة معلومة أخذناها في درس الإحصاء، تفيد أن نسبة المخاطر لدى شركات التأمين على الحياة تتراوح بين 1- 2 لكل ألف، للأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاماً؛ بينما نسبة القتلى في الحروب لا تقل عن مائة لكل ألف، ناهيك عن الجرحى والأسرى المحتملين.
* عمرك طويل سيدي، فكما كان الحظ حليفك في الحرب مع إيران؛ سيكون هذه المرة أيضاً، إن شاء الله.

بدأت ملامح الهزيمة مبكراً؛ عندما أخذ الجنود يتسربون تباعاً من مواقعهم، فمن يذهب في إجازة لا يلتحق بوحدته ثانية، ولم يبق غيرنا نحن الضباط وثلث عدد الجنود؛ ولحسن حظنا أعد الآمر المحنك، قبيل بدء الحرب بأيام، مواقع بديلة تقع إلى الخلف من مواقعنا بنحو ستة كيلومترات، وسحب ما تبقى من الضباط والجنود إليها، تاركاً مجموعة للرصد فقط، وكذلك أخلى عدداً من المدافع التي لم يهرب طاقمها؛ بدأت قوات التحالف هجوماً كبيراً مستخدمةً القصف بالطائرات والصواريخ المجنحة، في عملية أطلق عليها (عاصفة الصحراء) لتحرير الكويت؛ وتكَشَّفَ لنا بما لا يقبل الشك؛ بأننا سائرون نحو هزيمة نكراء، حين فشلت المضادات الأرضية من التصدي لأسراب الطائرات التي هيمنت على السماء وأخذت تمطرنا بآلاف الأطنان من القنابل؛ كان قرار القائد حكيماً فقد تعرض موقعنا المتقدم إلى قصف مهول جعل الأرض تهتز من تحتنا وكأنها أرجوحة مع أننا كنا على تلك المسافة منه، ولو لا خطة الآمر تلك؛ لكنا في عداد الأموات حتماً؛ وبعدها بدأ الهجوم البري، وتقدمت ثلاث وحدات تابعة لفرنسا وبريطانيا وأمريكا، وكل ظنهم أن لا أحد نجا من القصف ذاك، وهنا أمر قائد وحدتنا بإطلاق القذائف من جميع المدافع دفعة واحدة، وتكرار ذلك بأقصى ما يمكن من سرعة، ويبدو أننا بذلك أوجعناهم، فقد سمعناهم عبر أجهزة الاتصال يتبادلون الشتائم فيما بينهم، ثم انسحبت القوات الفرنسية والبريطانية وبقيت القوات الأمريكية وحدها تتلقى ضرباتنا، إلا أنها استدعت الطيران الذي قصف مواقعنا البديلة ودمر معظم مدافعنا وشلَّ حركتنا تماماً؛ كنا بالكاد نخرج من ملاجئنا المحصنة بشكل جيد؛ لتفقد ما يجري على الأرض، ولحسن حظنا أن القوات المهاجمة لم تجازف وتُقدم ثانية على مهاجمتنا.

في تلك الأيام العصيبة عانينا من شح في الأرزاق، وفقدنا الاتصال مع الفرقة، والسيارة التي أرسلناها إلى الخلفيات لم ترجع، وتبين لنا لاحقاً أنها تعرضت للقصف، إلا أن السائق ومرافِقِيه نجوا بأعجوبة؛ ولاحقاً رجع سائق الأرزاق بسيارة جيب عسكرية مموهة بالكامل بالطين دون أن يستخدم الإضاءة، جالباً معه أخباراً مقلقة؛ قائلاً:

* بعد أن قصفوا سيارتنا واصلنا طريقنا إلى الخلفيات مشياً فوجدناهم يتهيؤون للانسحاب إلى داخل العراق بعد أن جاءتهم الأوامر بذلك؛ كان عدد الآليات يفوق عدد الجنود المتبقين واقتضى التخلي عنها، فحصلت على هذا الجيب؛ لأنقل لكم خبر الانسحاب.

ارتسم على وجه الآمر تعبير ينم على السخرية، وسأل:

* كيف لمثل هذا أن يحدث؟

كان الغضب بادياً على وجهه؛ لكنه تمالك نفسه وأمر الجميع بالانسحاب؛ وهكذا سرنا بأقصى سرعة ممكنة تحت جنح الظلام؛ نتوقف عندما نسمع هدير الطائرات يقترب منا، ونبتعد عن سياراتنا بقدر المستطاع؛ فعلنا ذلك مرات عديدة؛ ولكن للأسف كانت وسائل الرؤية الليلة التي تزودت بها الطائرات تكشف تحركنا، وإن كنا لم نقصف في المرات السابقة؛ فذلك لأن الطائرات شُغلتْ عنا باستهداف أرتال أخرى مررنا عليها وشاهدنا النيران تشب بعجلاتها المحترقة وجثث الجنود المتناثرة على طول الطريق، وكانت مسألة نجاتنا تتطلب معجزة لم تكن متاحة للجميع في ذلك الوقت؛ كنا قد قطعنا مسافة طويلة عندما طرق سمعي هدير طائرة في السماء وهي تقترب منا، فقفزت من السيارة وركضت خائضاً في الرمل مبتعداً عن الطريق المعبد قدر المستطاع، وما هي إلا لحظات حتى ألقت الطائرة حممها على رتلنا وأحالت الآليات إلى ركام والبشر إلى فحم، وكان من بينهم صديقي النقيب محمد أمين؛ وكان أسفي عليه كبيراً؛ لا يعادله سوى تفكيري بالنجاة؛ ولم ينجُ منا سوى من أعانته قدماه للابتعاد بالقدر الكافي، عند ذاك ارتأينا مواصلة الانسحاب سيراً على الأقدام على أن يكون مسيرنا على بعد مائة متر بموازاة الطريق المعبد؛ سرنا في الظلام الذي غشي النهار بسبب انبعاث الدخان من آبار النفط الكويتية التي قرر الجيش حرقها لتعمية العدو، وخلال مسيرنا الطويل، شعرت بالتعب وتثاقل جسمي؛ فرميت معطفي وجعبة العتاد لأخفف الحمل عني، وبعد عدة كيلومترات أتبعتها برمي بندقية الكلاشنكوف، وقلت لنفسي يكفيني المسدس؛ لأدافع به عن نفسي عند الضرورة؛ ولكن الدمامل التي برزت في باطن قدمي آلمتني وحدَّت من حركتي حتى وجدت نفسي وحيداً ولا أعلم هل سبقني رفاقي أم تركتهم خلفي؟ الشيء الجيد الوحيد هو أني تجاوزت سحب الدخان الخانقة؛ نظرت إلى السماء وكانت الشمس قد تخطت الزوال قليلاً، فتوقفت لتأدية صلاة الظهر؛ جلست على الأرض وخلعت بسطالي وعاينت الدمامل الكبيرة الناتئة على باطن قدمي وأطراف الأصابع، لم يكن معي ماء؛ فتيممت بالرمل وأديت صلاتي، وقبل الركعة الأخيرة سمعت هدير مروحية يدنو شيئاً فشيئاً، ومع إتمامي الصلاة، كانت المروحية فوق رأسي تماماً، وجهت بصري نحوها؛ فشخَّصتُ جندياً أمريكياً يطل بمدفعه الرشاش عليَّ، ويؤشر لي بأن أتخلى عن مسدسي ففعلت، وكلي يقين بأنها مقدمة لأسري، وقلت:( يا لقلب أمي! ألا يكفيها أن يكون أبي أسيراً، ليتبعه ابنها؟) بيد أنه أشار إليَّ بإبهامه علامة رضا (أوكي)، ثم رمى لي بكيس فيه عبوة ماء وألواح من الشوكولاتة؛ ثم تابعت الطائرة تحليقها، فتنفست الصعداء وحمدت الله على ذلك؛ لكن الدمامل التي أخذت تعيق حركتي؛ جعلتني لاحقاً أتحسر لأنهم لم يأسروني؛ وفي لحظة تفكير مترعة باليأس؛ قررت المجازفة والعودة إلى الطريق المعبد وأستقل أية آلية متاحة، وفعلاً توقفت سيارة جيب عسكرية منزوعة السقف، وأقلني سائقها إلى مدينة البصرة، بعد أن سلك طريقاً فرعياً جنبنا طائلة القصف المميت؛ دخلت مدينة البصرة مساءً وكنت منهكاً وجائعاً؛ وبحثت عن شيء لآكله لكن محال المدينة ودكاكينها كانت مغلقة والظلام يلف كل شيء من حولي، وفاقم المطر الذي هطل، الوضع عليَّ؛ سفعت ظهري ريح باردة تسللت إلى عظامي فرحت أرتجف وأسناني تصطك؛ فتحسرت على معطفي الذي تخليت عنه أثناء مسيري؛ لكني تذكرت رفاقي الذين تخلوا عن أجسادهم هناك، وهو أمر لا يمكن مقارنته بخسارة معطف؛ وفجأة لمحت ضوءًا خافتاً صادراً من فرع يقع على يمين الطريق الذي كنت أسلكه، فقصدته؛ وعندما اقتربت أكثر وجدته صادراً عن فوانيس داخل خيمة عزاء، وثمة رجال يتسامرون جالسين بالقرب من مدفأة نفطية؛ أديت التحية عليهم وقرأت سورة الفاتحة على روح المتوفي الذي تبين لاحقاً أنها امرأة، ثم أتى أحدهم لي بقدح شاي فأخذته منه بيد ترتعش، فلاحظ ذلك وجلس بقربي وحياني:

* مساكم الله بالخير.
* مساكم الله بالخير.
* حضرتك من البصرة؟
* لا والله! من ميسان، المجر الكبير.
* يا أهلا وسهلاً؛ حمداً لله على سلامتك، لقد أعلنوا وقف إطلاق النار اليوم.

لذت بالصمت وأنا أفكر بتلك الحرب العبثية وأفتش عن جدوى سفك كل تلك الدماء؛ لكن الجوع لم يدعني استغرق في أفكاري، وكنت على وشك أن أقول له بأني أتضور جوعاً؛ إلا أن الحياء غلبني وكأس الشاي أسكت جوعي قليلاً؛ بيد أن الرجل نادى شاباً بسن المراهقة وأمره أن يجهزوا لي الطعام، وبعد عدة دقائق أتى لي بصينية فيها صحن من الرز وآخر من مرق الفاصولياء وقرص من الخبز، ووضعها أمامي، وهو يعتذر بأن هذا كل ما تبقى عندهم لأن الوقت متأخر، لم أنطق بكلمة واحدة بل رحت أحشو الطعام في فمي وكأني في مسابقة، ولم أنتبه إلى أني كنت آكل الطعام بكلتا يدي، إلا حينما قاربت الانتهاء من الطعام؛ فهدأت معدتي وأتبعها الرجل بقدح شاي آخر، ثم قال لي:

* إن أردت النوم فثمة فراش في طرف الخيمة، وسآتيك بدشداشة.

فأبديت موافقتي مردداً عبارات الشكر؛ وضعتَ رأسي على الوسادة ورحت بنومة بملءِ الجفون، ولم أستيقظ إلا على صوت أذان الفجر فقمت متحاملاً بسبب قدمي الملتهبة، وصليت، ثم أديت تعقيبات الصلاة حتى انبلج الفجر؛ التفتُ إلى الكرسي الذي تركت عليه بزتي العسكرية، كي أرتديها وأتابع مسيري؛ فلم أجدها، وكان مضيفي وبقية الأشخاص الذين معه، قد عادوا لمتابعة نومهم، فلم أشأ أن أوقظهم لأسأل عنها.

حلَّ الصباح وانتشر نوره في الأرجاء ولاحت لي بزتي العسكرية على أحد الكراسي قرب المدفأة النفطية، وبقربها مضيفي الذي بادرني قائلا:

* عذراً تبقى الشيء القليل لتنشف، فقد جعلت الأهل يغسلونها؛ وإن كنت تود الاغتسال فالحمام جاهز.

كنت فعلاً، بحاجة ماسة للاستحمام؛ لأن جسدي لم يرَ الماء منذ أسبوع؛ بعد الحمام قدموا لي الفطور، وشعرت بعد ذلك بأني استرددت إنسانيتي بفضل كرم هذا الرجل؛ كان في الأربعين من عمره أبيض البشرة وملتحٍ، يخالط شعر رأسه ولحيته الشيب، وكانت المتوفية هي أمه، أما الشاب اليافع فهو ابنه، غادرت خيمة العزاء مبدياً امتناني الوافر لهم، وذهبت إلى ساحة سعد حيث مرأب السيارات؛ عسى أن أعثر على سيارة تقلني إلى أهلي؛ ولكني لم أجد غير مجاميع كبيرة من الضباط والجنود يرومون السفر مثلي، بعضهم ينتظر منذ ليلة أمس وكانوا يتذمرون، وفجأة أصيب سائق دبابة بنوبة هستيرية وسدد بندقيته إلى صورة الرئيس وأطلق عليها النار، وهو يصيح:

* (إلمن هاذي الشباب انقتلت)؟

تجرأ جنود أخرون فأخذوا بدورهم إطلاق نار بنادقهم على الصورة، وعمَّت الفوضى وارتفعت الهتافات المناوئة للنظام، بينما قام آخرون ببيع أسلحتهم للأهالي مقابل مبالغ زهيدة، وعند انتصاف النهار خرجت مجاميع مسلحة وسيطرت على جميع مرافق الدولة؛ بعضهم قام بسرقة ونهب ممتلكاتها، ولم تعد للدولة أية سلطة على المدينة؛ في تلك الأثناء جاءت سيارة بيك آب وعرض سائقها على الواقفين إيصالهم إلى منطقة الهارثة التي تبعد ثلاثين كيلومتراً شمالاً مقابل مبلغ باهض، فوافقت وقلت في داخلي أية مسافة تقربني من أهلي ستكون بمثابة نعمة في هذه الظروف المجنونة؛ وركب معي عدد لا بأس به من الجنود الذين تقطعت بهم السبل؛ ومن هناك مشيت بضعة كيلومترات قبل أن يمر بقربي جرار زراعي؛ فركبت معه وعرضت عليه بعض المال، فرفض؛ ولكنه سألني إن كنت أمتلك سلاحاً أو عتاداً لأهبه له؛ فأجبته بالنفي، وعندما وصل وجهته، أعطاني رأساً من الخس، واعتذر لأنه لا يذهب لأبعد من ذلك؛ وبالخس أخمدت جوعي وتابعت السير، وقبل حلول المغرب، كنت قد وصلت إلى مشارف ناحية الدير؛ وفجأة رأيت مفرزة عسكرية من قوات نبوخذ نصر التابعة للحرس الجمهوري، وثمة ضابط برتبة مقدم واقف معهم، أديت له التحية، فردها عليَّ وقال بنبرة ودودة:

* حمداً لله على سلامتك، تفضل اركب سيارتي.

فشكرته وارتميت في السيارة التي سبقني إليها ضابطان وما لبث أن لحق بنا ضابط آخر وكلهم كانوا قطعوا المسافة من الكويت إلى هنا مثلي؛ وكانت هناك سيارة حمل عسكرية مخصصة لجمع الجنود وضباط الصف وحين امتلأت ساروا بنا إلى مقر اللواء؛ في بادئ الأمر لم نكن نعرف الغاية من تصرفهم ذاك؛ ولكن أن تنقلك سيارة وتتناول طعام العشاء في بهو الضباط، وأن تنام على سرير؛ وجدته نوعاً من الرفاهية؛ في ذلك اليوم ظننت أن خروج المتظاهرين المسلحين كان مجرد فورة غضب عمَّت البصرة؛ ولم أعرف أن تسع محافظات قد انتفضت فضلاً عن أجزاء من بغداد ذاتها؛ كان التفكير بأهلي يستحوذ عليَّ؛ فقد انقطعت أخباري عنهم ويجهلون مصيري.

في اليوم التالي خرجنا إلى ساحة العرضات وانضم إلينا أفراد من الجهاز الحزبي، ثم جاء مسؤول بعثي كبير وخطب بنا واصفاً الثائرين بالغوغاء الذين ينبغي القضاء عليهم؛ فأدركت أنهم يريدون منا قتال بني جلدتنا؛ حينها لعنت اللحظة التي أصبحت فيها عسكرياً؛ بعد ذلك سلمونا أسلحة رشاشة، وخرجنا برتل كبير متجهين إلى البصرة، وعند مشارفها حدث اشتباك عنيف مع المنتفضين، حينها داهمتني غمامة حزن ثقيلة، وناجيت ربي: (يا إلهي ماذا دهانا حتى غدونا نشهر بنادقنا بصدور بعضنا بعضاً؟ لماذا نحن هنا؟ الجيش سور الوطن، وليس لقتل أبناء الوطن!)؛ وأقسمت بأني لن أطلق ولو رصاصة واحدة.

استمرت الاشتباكات لعدة أيام وكانت تعزيزات الجيش تتنامى كل يوم، وتمكنت القوات المشتركة من الجيش والحزب من كسر المقاومة، وتلتها حملة اعتقالات عشوائية للشبان طالت المئات، وجرى جمعهم في مركز اعتقال، ثم حدث أمر خلَّفَ الفجيعة في قلبي، عندما وقعت عيناي على مضيفي وابنه بين تلك الجموع؛ بدت نظراتهما متوسلة وغاصة برجاء التشبث المستميت بحبل النجاة، فكاد قلبي أن ينفطر، فما عساي أن أفعل لإنقاذهما! فأنا مجرد ضابط برتبة ملازم أول، بين ضباط لا أعرفهم، التفتُ يميناً وشمالاً، ولم يكن أمامي سوى المقدم الذي أجهل اسمه، ولا أعلم ما تنطوي عليه سريرته كي أفاتحه؛ إلا أن الموقف يستدعي المجازفة، فأسرعت صوبه وقلت له:

* سيدي هنالك شخصان ضمن المعتقلين من معارفي، وهما أبرياء حتماً.

بقي صامتاً أول وهلة، بينما رحت في غمرة الترقب، أتطلع إلى ما سيقوله:

* حسنا سنحقق معهما قبل الآخرين ثم نطلق سراحهما، إنها الطريقة الوحيدة لذلك.

غمر الفرح قلبي وبالغت بشكره؛ ولكن الأمور سارت خلاف ما كنت آمل؛ ففي تلك الأثناء وصل زائر غير متوقع؛ كان عضو قيادة في الحزب، ومعه حماية مدججين بالشر، قَدِموا كسربِ جراد تمادى في غيه؛ معبئين برغبة محمومة للانتقام؛ أمر عضو القيادة بجمع المعتقلين، وقام مع أفراد حمايته بالتنكيل بهم، وشاء القدر أن يكون مضيّفي وابنه؛ أول من وقع بين أيديهم، فتعرضا للضرب المبرح بأعقاب البنادق، وعندما سقطوا أرضاً تولت البساطيل العسكرية الغليظة بقية المهمة؛ كدت أصرخ من هول المشهد، إلا أن المقدم تنبه لانفعالي ولكزني ليمنعني من التفوه بأية كلمة، فلم أمتلك غير إطباق جفنيَّ عن مشهد القسوة الوحشية التي يمارسونها لألوذ به؛ ورجائي أن فرصة إنقاذهما ما زالت قائمةً؛ إلا أن أبواب الأمل أوصدت ونُحِرتِ الأماني، عندما سحب عضو القيادة مسدسه وأعدمهم، لم أتحمل الموقف وسقطت مغشياً عليَّ، فأمر المقدم بعض الجنود ليحملوني إلى الطبابة، قبل أن يتنبه عضو القيادة لحالي.

**-5-**

بعد إخماد الانتفاضة التي قامت ضد النظام في المدن الجنوبية من العراق؛ عاد موسى إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وكنا لغاية تلك اللحظة متشبثين بأمل عودته سالماً، أو على أقل تقدير أن يكون قد أسر من قبل قوات التحالف، ذرفنا جميعاً دموع الفرح وشقت زغاريد أمي سكون الليل فتداعى إلينا جيراننا يهنئوننا على سلامة عودته.

بعدها بشهرين تسرح موسى من الجيش، وتقدم للوظيفة في معمل السكر، وعندها أخذ موات بتضييق الخناق عليه لينتمي إلى حزب البعث؛ إلا أنه تملص بشتى الذرائع؛ وذات يوم أراد أن يحشره في زاوية ضيقة عندما قال له:

- ما دمت غير راغب بالانتماء للحزب؛ فاذكر الأسباب التي تمنعك لكي أبرئ ذمتي أمام الشعبة الحزبية.

كان ذلك فخاً أراد أن يوقع به موسى، ولا سبيل من تفاديه إلا بالانتماء للحزب، فاستل ورقة وقلماً بيد ترتجف وبال متكدر؛ فأي كلمة سيكتبها وأي عذر سيسوقه، سيكون قابلاً للتأويل بأنه معادٍ للحزب والقائد؛ ولم يمتلك غير التوسل إلى الله ليخرجه من المأزق الذي وضِعَ فيه؛ فدعاه في سره (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء).

كان موات يمعن النظر في وجه موسى، وافتر ثغره بابتسامة نصر مرتقب؛ بيد أن موسى كتب: إني الموظف موسى إبراهيم محمد، أعتذر عن انتمائي لحزب البعث العربي الاشتراكي، بسبب سوء حالتي الصحية علماً أني لا أعتبر نفسي خارج صفوف الحزب طبقاً لقول الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله ورعاه ((المواطن الجيد هو بعثي جيد وإن لم ينتمي))؛ ألقم موات حجراً فالعذر يستند إلى قول القائد الذي لا يؤوَل ولا يُبًدل؛ ومن حينها لم يفاتحه بالموضوع ثانية، إلا أنه كتمها في صدره الطافح بالحقد واللؤم.

كان أبي يلح على موسى بالزواج ورشح له بتول ابنة عمي يوسف، الشقيق الأكبر لأبي الذي يسكن في مدينة العمارة والتي كانت تدرس في المرحلة الأخيرة من معهد المعلمات؛ لم نعرف وقتها أن إلحاح أبي على زواج موسى، كان بسبب إصابته بمرض السرطان الذي أخفاه عنا؛ وأن نصيبه في الدنيا قد تحدد؛ إلا أن المرض اشتد عليه؛ وأصبح الوجع لا يطاق؛ ورغم ذلك كان يكابر ويناجي ربه قائلاً:

* اجعلها هينة لينة يا إلهي.

ولم يمهله المرض طويلاً، فما لبث أن توفي مطلع عام 1992، دون أن تتكحل عيناه برؤية ابنه البكر في عش الزوجية؛ أو أن يشهد تخرجي بعد عام؛ غادر أبي هذه المرة في رحلته الأبدية؛ وكأن الأسر كان مجرد ترويض لنا على فقده.

كان وضعنا المادي جيداً لغاية وفاة أبي؛ فراتبه غطى نفقات الأسرة؛ أما راتب موسى عندما كان ضابطاً؛ فادخرته أمي لزواجه؛ إلا أننا اضطررنا لإنفاق المدخرات على مراسيم العزاء التي لا محيص من أدائها؛ ثم أخذ الحصار على العراق يفرض سطوته علينا، وراحت الأسعار تتنامى يوماً بعد يوم؛ وذات يوم توجب عليَّ الالتحاق بالكلية، ولم يكن في البيت دينار واحد؛ بقيت أتطلع في وجه أمي المثقل بالحزن على فقد أبي، وعيني موسى اللتين تنزان حيرة، ومرَّت لحظة صمت ثقيل شعرت فيها بالخجل، ولمت نفسي لأني فاقمت الوجع عليهما؛ كسرت أمي ذلك الصمت عندما خلعت الحلقة من خنصرها:

* بعها، وتصرف بثمنها.

اعترضنا أنا وموسى بشدة، لعلمنا بمكانة تلك الحلقة على قلبها؛ فتخليها عنها كان بمثابة التخلي عن أبي، واقترح موسى أن نبيع مبردة الهواء، وقال:

* إلى أن يَقْدِمُ الصيف، سيفرجها الله.

في خضم الوضع الاقتصادي المتردي، توجب على ذوي الدخل المحدود وجلّهم من طبقة الموظفين، أن يتدبروا أمرهم بترشيد الانفاق وتقديم الأولويات، مثلما يفعل قاطع الصحراء الذي يقتصد في استهلاكه لشرب الماء ويتحمل العطش؛ ليتمكن من بلوغ الواحة التالية في مسيره حياً؛ كان الراتب الشهري أشبه بالواحة، وما بين راتب وآخر، نبقى مسجلين على قيد الحياة؛ ولكن أية حياة هذه التي لا تستطيع فيها ترويض جوعك، وتتنازل فيها عن أشياء كثيرة أضحت تعد ترفاً، فلم أكن أمتلك سوى قميص وبنطلون واحد، وعندما يتسخان أغسلهما بعد عوتي من الدوام مباشرة؛ ليجفّا عند المساء ثم أقوم بوضع البنطلون أسفل الفراش قبل النوم ليبدوا وكأنه مكوي؛ ملابسي الداخلية والمنامة كانت أمي تخيطها لنا من قماش الستائر القديمة، وعندما اشتد عليَّ البرد؛ أخذتُ بطانية من البيت وفصّلتها معطفاً، ولم أشعر بالحرج لأني تخليت عن أناقتي السابقة؛ فالشعور بالدفء أولى، ثم أن ذلك كان أمراً شائعاً في ظل الحصار الجائر؛ بعت المبردة وتدبرت أموري لغاية انقضاء العام الدراسي؛ إلا أن فرحتي بالانتقال إلى المرحلة الأخيرة من الكلية، كان يقوضها التفكير بتدبير نفقة العام المقبل، فنويت العمل خلال العطلة الصيفية، وعثرت بشق الأنفس على فرصة مع صديقي عليّ عبد السادة؛ الذي تخصص بهدم البنايات؛ بعد أن كان في الأصل بناء؛ فقد ألجأ البؤس كثيراً من الناس لهدم غرف منازلهم وبيع أبوابها وشبابيكها وأعمدة سقوفها؛ وحتى الطابوق يجري تنظيفه من الاسمنت أو الجص، ويعاد تدويره؛ كان عملاً شاقاً لشاب مثلي لم يعهد المشقة من قبل؛ لفحت شمس الصيف اللاهبة بشرتي وخضبتها بلون أسمر داكنٍ.

عدت إلى مقاعد الدراسة، ونفد المال الذي ادخرته في غضون شهرين، وعندما رجعت إلى البيت للحصول على بعض المال؛ وقفت أمي حائرة لأن تقاعد أبي كان يتبخر خلال الأسبوع الأول من الشهر، لتبدأ بعدها رحلة المعاناة في البحث عن سبل تدبر مؤنة بقية الشهر من راتب موسى، أو من بيع شيء ما من سلع البيت؛ كان الحصار شبيهاً بإعصار ضرب البلد طولاً بعرض، مخلفاً الدمار الهائل، فالأسعار ترتفع من يوم لآخر، والحصة التموينية جرى إنقاصها، ولم تعد تكفي لتغطية الشهر كله، وأصبح شراء الطحين الأسمر الذي تفنن بعض المحتالين بخلطه مثل النخالة ومسحوق نوى التمر بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان؛ تستنزف الرواتب التي لم يطرأ عليها تغيير كبير؛ فاكتست الوجوه بالهزال وانطفأ بريقها.

أحزنني التفكير بأني استنزف أسرتي في ظل تلك الظروف القاسية من أجل إتمام دراستي، ولا سيما أن موسى كان في نيته تنفيذ رغبة المرحوم أبي بخطبة ابنة عمي بعد الذكرى السنوية لرحيله التي ستحل بعد شهرين؛ لذا ارتأيت تأجيل الدراسة إلى العام القادم؛ فسألني أخي مستغرباً:

* لماذا؟
* توفير مصاريف الدراسة أمر شاق بل مستحيل.
* هل قصّرنا معك في شيء؟
* ليس معي، بل تقصرون بحق أنفسكم، ولن يقبل ضميري إثقال كاهلكم بمصاريف الدراسة؛ إنها مجرد سنة دراسية واحدة وسأستأنفها العام المقبل، عسى أن يكون الحصار حينها قد انتهى؛ ولغاية ذلك الوقت سأبحث عن عمل.

لكن موسى رفض، وكان الحل ببيع الثلاجة، وقال:

* ستفرج إن شاء الله، أبي كان يردد دائماً، دوام الحال من المحال.

كان أبي مؤمناً بتلك الحكمة، إلا أني لم أرَ أنها تنطوي بالضرورة على التفاؤل، فحالنا يسير من سيء إلى أسوأ عاماً بعد عام؛ وإثر إلحاح موسى؛ عدت إلى مقاعد الدراسة؛ وكان المبلغ الذي بحوزتي لا يغطي نفقاتي إلى نهاية العام الدراسي، حتى مع التقشف الشديد، لذلك بحثت عن عمل بعد الدوام في الكلية؛ يعينني على تخطي ظروفي الصعبة، وبعد بحث طويل اشتغلت في ورشة لتصليح الأجهزة الكهربائية؛ كانت لدى صاحبها إعاقة بيده اليسرى، أصيب بها جراء قصف إيراني على مدينة البصرة خلال الحرب، ولم يكن بمقدوره حمل الأجهزة الكبيرة؛ لذا كان مضطراً لتشغيل شخص يعينه على حملها مقابل مبلغ تافه يكفي لشراء شطيرة فلافل للعشاء، وبيضة ورغيف خبز للفطور؛ إلا أن الرجل لم يبخل عليَّ عندما طلبت منه أن يعلمني فنون تلك المهنة التي تدر دخلاً جيداً؛ وهكذا تدبرت شطراً من نفقاتي وأتقنت حرفة سيكون لها دور في مرحلة ما بعد التخرج من الكلية.

حلَّت الذكرى السنوية الأولى لرحيل أبي؛ فأثارت أمي موضوع الخطوبة مع موسى الذي كان متردداً؛ لأن توفير نفقات الزواج شيء مستحيل؛ كان وجدان أمي يتوق لتحقيق أمنية المرحوم أبي بشدة؛ فقالت:

* لنخطبها أولاً، وتزوجها متى ما تيسر المال؛ لن تكلفنا غير حلقة الخطوبة.
* راتبي لشهر كامل، ومعه تقاعد المرحوم أبي؛ لا يكفيان لشراء الحلقة.

وبشكل مفاجئ لنا؛ خلعت أمي حلقتها بما لها من منزلة على قلبها، وقدمتها لموسى.

ذهبنا إلى مدينة العمارة، وقصدنا بيت عمي في محلة الجِدَيْدَة؛ ولأول مرة من بعد رحيل أبي؛ تهلل وجه أمي بالفرح؛ فرح يُنسيها التفكير بالحزن، بالموت، واستعصاء الحياة؛ وعندما فاتحنا عمي وزوجته التي هي ابنة عم والدي؛ تبدت على محياهما الفرحة، فأخي موسى هو خير ما كانا يتمنياه ليقترن بابنتهما، وأحد براعم شجرة العائلة، ويحمل موروثها الأخلاقي، فضلاً عن كونه مهندساً، ووسيماً؛ أجابنا عمي:

* (گبعوها واخذوها).

ما قاله عمي لم يكن من قبيل المجاملة؛ بل هو فعلاً ما كانت تنطوي عليه رغبته بعدم إثقال كاهل ابن أخيه بكلفة الزواج؛ فردت عليه أمي معترضة:

* لا نرتضي أن يكون مهر بتول أقل من مهور قريناتها.

ران الصمت على الجميع لبرهة، فلم يشأ عمي خوض ما يشبه عملية البيع والشراء؛ لكن زوجة عمي كسرت الصمت:

* مهر صديقةِ بتول المقربة، التي خُطبت قبل أيام، كان خمسين ألف دينار مقدماً، ومثلها للمؤخر.
* على بركة الله، لنقرأ الفاتحة على روح العباس بن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

لم يخفَ عليَّ أن نبرة صوت أمي تغيَّرت؛ فمقدار المهر فاجأها تماماً؛ هًمٌّ تدبر أمور عيشنا؛ ألهاها عن كل شيء آخر.

أثناء عودتنا إلى بيتنا، كان حال أمي وموسى أشبه بحال فريق كرة قدم أحرز التعادل في المباراة؛ فلا فرحة بالفوز؛ ولا حزن بالخسارة؛ كان من المتعارف عليه؛ أن مقدم المهر يقسم إلى قسمين؛ نصفه يسلم بيد العروس لتشتري به الحلي الذهبية والملابس، ويسمى جهاز العروس؛ أما النصف الآخر فهو مخصص لأثاث عش الزوجية، وهو في عهدة العريس؛ ولكن مراسيم الزفاف تتطلب تكاليف إضافية، منها الوليمة؛ واضطر موسى لتأجيل زواجه مرة تلو أخرى لضيق ذات اليد؛ كان بوسعه أن يفعل مثلما فعل الآخرون ليتدبروا أمورهم عن طريق الرشوة وسرقة المال العام؛ لكنه أبى إلا أن يعيش مستقيماً مثلما أراد أبي وجدي أن نكون عليه.

بعد شهرين من تخرجي، توجب عليّ تخطي محنة أخرى وهي الالتحاق بالخدمة العسكرية؛ أخذت كتاب السوق من التجنيد إلى مركز تدريب المشاة في ناحية الكميت، وهناك وجدت أقراني يقفون في طابور أمام قلم المركز ليسلموا كتبهم ويفرقوهم على السرايا؛ عند السرية استقبلنا نائب ضابط قصير القامة بشاربين كثيفين؛ سلمنا ملابس عسكرية مستخدمة لا تصلح حتى لأن تكون خرقاً للمسح، ثم استقدم الحلاق وحلق شعرنا بماكينة الحلاقة اليدوية المعروفة بنمرة صفر، وبعد أن ارتدينا الملابس التي جعلتنا نبدو كشحاذين؛ جمعنا في ساحة العرضات ثم باشر بتدريبنا؛ ولم يكن تدريباً؛ بل نوعاً من التعذيب الجسدي والنفسي، تتخلله عقوبات قاسية وإذلال كبير، وبعد ساعتين حلَّتْ فترة الاستراحة؛ كنت وفصيلي منهكين وخائري القوى، ولم نبرح مكاننا من شدة التعب، وسمعت أحد الجنود يقول:

* (راح أهرب وخلّي شي يصير، يصير).

في تلك الأثناء، اقترب منا رئيس العرفاء الوحدة، وتوجه إلينا بالكلام:

* الوحدة بحاجة إلى متبرعين لإتمام الأعمال الإنشائية في جناح التدريب، ومن لديه رغبةً للتبرع؛ سيمنح إجازة لمدة أسبوعين.

هبت مجموعة من الجنود واقفة؛ وكأن التعب زال عنهم فجأة، وأبدوا موافقتهم؛ فقادهم رئيس العرفاء إلى غرفة الضابط وفي الطريق أسرَّ لهم أن الإجازة غير محددة بوقت؛ بل بمقدار ما سيدفعونه، وأنه بوسعهم أن يمضوا مدة التدريب الأساسي في بيوتهم إذا ما تبرعوا بمبلغ أكبر؛ كان المطلوب دفع خمسة آلاف دينار مقابل عدم الدوام لغاية انتهاء الدورة، وهو مبلغ لو كانت أسرتي تمتلكه، لكان الأولى ادخاره لخطوبة موسى.

كان القسم الثاني من التدريب نقمة حلت على رأسي ورأس بقية الجنود الذين حال ضيق ذات اليد بينهم وبين دفع الرشوة؛ وبدا واضحاً لنا، أن الغاية من التدريب العنيف؛ هي لإرغامنا على الدفع.

عصر ذلك اليوم سمحوا لنا بالذهاب إلى بيوتنا، لربما تأملوا أن نغير رأينا وندفع الرشوة المطلوبة؛ فقفلت راجعاً وأنا في مزاج متعكر ومنهك القوى، وتمنيت لو أن موسى يعرف ضابطاً ما في مركز التدريب ويكلمه بشأني.

مضى عليَّ أسبوعان في المركز؛ عانيت فيه الأمرين وبينما تحملت بصبر كبير تلك المعاناة، كان عدد الجنود يأخذ بالتقلص شيئاً فشيئاً ولا سيما أن رئيس العرفاء خفض المبلغ إلى النصف؛ ومع حلول الأسبوع الأخير تقلص عددنا إلى عشرة جنود فقط، أنا وتسعة بائسين فضلوا البقاء في المعسكر لأنهم لا يجدون في بيوتهم ما يشبع بطونهم ولا يمتلكون أجرة السيارة التي تقلهم إليها، وفي آخر يوم لنا في معسكر التدريب، حضر جميع جنود دورتنا الذين دفعوا الرشى، ليدفعوا مرة ثانية؛ من أجل نقلهم حسب خطة السوق، إلى مراكز تدريب الصنوف الأنسب لهم، وكانت صدمتي كبيرة عندما وجدت كتابي معنوناً إلى مركز تدريب الهندسة الآلية العسكرية في المسيب.

بعد ثلاثة أيام عزمت على الالتحاق بالمركز، وعندما حلَّ المساء توجهت إلى مدينة العمارة مستخدماً السيارة المخصصة لنقل موظفي معمل السكر؛ ومن مرأب السيارات انطلقت بي حافلة ريم (سكانيا) عبر طريق البتيرة، إلى كربلاء التي تبعد عن المسيب أربعين كيلومتراً. كان هدير محرك الحافلة يصم الآذان؛ ومقاعدها غير مريحة، فهي في الأصل مخصصة للنقل الداخلي؛ ورغم ذلك غالبني النعاس وغفوت؛ ولا أعلم كم مضى من الوقت عندما صحوت مع توقف هدير محرك السيارة الذي ملأ رأسي بالضجيج؛ فتحت عيني بنصف إغماضة وألقيت نظرة إلى الخارج عبر زجاج النافذة، فألفيت حافلتنا متوقفة في مكان مقفر تماماً، وثمة سيطرة عسكرية من عدة سيارات؛ هي التي اعترضت طريقنا وأوقفتنا؛ صعد عسكري ملتفع بشال يغطي نصف وجهه، ولا يحمل أية رتبة، وأمر من هم بعمر الشباب، بالنزول لغرض التحقق في الهويات؛ فنزلت مع من نزلوا ووقفت في صف من عشرين شاب؛ وكنت متوجساً من أفراد تلك السيطرة لأنهم كانوا بلحى نابتة؛ كان الضابط الذي تولى التحقق من الهويات يتخطى المدنيين بسرعة؛ ولكنه عندما وصل إلى الشخص الوحيد الذي كان بزي عسكري بيننا، صفعه على خده، وارتفعت عقيرته بالسب والشتم:

* وين رايح؟ تخدم جيش البعث الظالم!

بُهتَ الجندي، واصفر وجهه، لربما ظن انهم سيقتلوه؛ ولم يهدأ روعه إلا بعد أن دعاه الضابط للفرار والتمرد على النظام؛ أما أنا؛ فأخفيت كتاب التحاقي بسرعة، وأبرزت هوية الأحوال الشخصية التي كنت أحملها معي حتى لا يصيبني ما أصاب ذلك الجندي التعيس؛ وبعد محاضرة تحريضية على صدام ونظامه، تركونا نمضي في سبيلنا عدا ذلك الجندي الذي جعلوه ينتظر سيارة تأتي من الاتجاه المعاكس ليعود بها من حيث أتى.

بعد الهزيمة النكراء التي تلقاها النظام في عاصفة الصحراء؛ ارتخت القبضة الأمنية للنظام، وفقد هيبته؛ فتشجعت قوى المعارضة لتتمدد في القرى والقصبات، وتقطع الطرق على السابلة؛ بيد أن النظام بقي كالنمر الجريح الذي بمقدوره البطش بمن يقترب منه، وكنا نحن سكان المدن -وللأسف الشديد- الأقرب إليه، نخشى سطوته ونشكك في قدرتنا على الوقوف بوجهه؛ وبهذا فإن المعركة الوحيدة التي انتصر فيها صدام؛ كانت ضدنا نحن أبناء شعبه الذين قهرنا وأذلنا.

**-6-**

**تشرين الثاني 1993**

سلَّمت كتاب السوق إلى قلم المركز؛ وألحقوني بدورة بدأت في ذات اليوم؛ وبدا الوضع مختلفاً بعض الشيء عن مركز التدريب الأساسي، فهنا تُعقد محاضرات حول ميكانيكا الآليات وطرق إصلاحها، وبعض المحاضرين كانوا من خريجي كلية الهندسة.

خصصت لمبيت الجنود قاعات كبيرة، بعضها تتوافر فيه أسرة وخزانات حديدية لكل جندي، وبعضها كانت خالية من كل شيء، كالتي كانت من نصيب دورتي، وتوجب عليَّ وعلى بقية الجنود وضع أفرشتنا مباشرة على الأرض؛ كان يومنا يبتدئ بساعة مخصصة للعرضات وإحصاء الموجودين، ثم تناول الفطور الذي هو عبارة عن حساء العدس والخبز، ثم نتجه بعدها إلى الصفوف التي نتلقى فيها المعلومات النظرية، أو يأخذونا إلى الورش من أجل التعليم العملي، ثم تأتي وجبة الغداء ثم العشاء، ونظراً لظروف الحصار الخانق؛ بدت الوجبات التي تقدم لنا -على تواضعهاـ نعمة كبيرة؛ أما الشيء الوحيد الذي لم يتواءم مع وضع معظمنا؛ فهو الراتب الهزيل الذي لا يغطي مجرد أجرة التنقل بين البيت والمعسكر، ناهيك عن شراء تجهيزات عسكرية لم تمنح لنا مثل الجوارب والبلوزات الداخلية وغيرها.

بعض جنود دورتي كانوا يسكنون في مزارعَ لا تبعد كثيراً عن المعسكر، وبعد الدوام يعودون إلى بيوتهم لأداء الأعمال المطلوبة في مزارعهم التي لم تبخل بمنحهم مقومات الحياة، بخلاف ما حدث مع عائلات الموظفين.

وكنا ننوب عنهم، عندما يأتي دورهم في الخفارات، وفي المقابل لم يبخلوا علينا بما تجود به أنفسهم من طعام.

بعد أن أمضت دورتنا ثلاثة أسابيع في المركز؛ مُنحنا إجازة لأسبوع؛ وغادر أغلب الجنود؛ ولكني ارتأيت المكوث يومين آخرين لتسلم الراتب؛ وعلى غراري فعل آخرون لا يتجاوز عددهم أصابع.

تلك الليلة تجمع الجنود عند الركن البعيد من القاعة، ليتجاذبوا أطراف الحديث ويتسامرون فيما بينهم؛ أما أنا فقد خامرني النعاس وتضايقت من دخان السجائر، فسويت فراشي بعيداً عنهم في الركن القريب من الباب لأتمكن من النوم، وقبل أن أغمض عيني؛ صدح أحد الجنود بغناء أبو ذية بصوت شجي:

(يا راحاي أريد افركهن لمن أدميهن يا راحاي

بسبب كل حين تأذّن يرى حي

أنا كل من نظر شخصي يرى حي

أنا ميت بسبب فركاك ليَّ)

كنت مغطياً رأسي بالملاءة وأصيخ السمع لهذا الشجن الجنوبي الذي يتسلل إلى الفؤاد دون استئذان؛ فأفلتت من عيني دمعة لم أستطع حبسها، وجال في رأسي سؤال عن جدوى وجود جيش؛ بينما البلد مستباح من قبل فرق تفتيش الأمم المتحدة التي فتشت غرفة نوم الرئيس ذاته، والجزء الشمالي من البلد؛ انفصل بشكل تام عن هيمنة الدولة ولا يسمح للطيران العراقي من التحليق فوقه؛ أما أطراف المدن والقصبات الجنوبية فهي ساقطة بأيدي المعارضة المدعومة من إيران؛ وقبل أن يغالبني النعاس؛ سمعت وقع أقدام مسرعة، تدخل إلى القاعة، وشخص يشتم ويرعد بعصبية:

* (يا كلب ابن كلب كان يغني، شنو عدنا معسكر لو ملهى!).

رفعت الملاءة عن رأسي؛ فرأيت الضابط الخفر ومعه عدد من ضباط الصف، يتحركون وكأنهم في صولة على العدو؛ لاذ الجنود بالصمت ولم يجبه أحد منهم، فثارت ثائرة الضابط وأمر ضابط صف بإيداعهم سجن الوحدة، فأوعز بصوت حاد:

* انهض!

ثم أمرهم أن يقفوا في طابور واحد، ويشرعوا في المسير؛ في تلك الأثناء كنت ما زلت مضطجعاً في فراشي عند الركن القصي الذي يقع خلف الضابط وجنوده، أراقب ما يجري، وكل ظني أني لست معنياً بالموضوع؛ ولكن الضابط لمحني عندما استدار ليخرج، فركل ساقي ببسطاله الثقيل؛ وقال بغضب:

* (كلب ابن الكلب مسوي نفسك نايم؛ انهض).

بلعت الإهانة، ونهضت واقفاً في وضع الاستعداد؛ وأنا أراقب يده وهي ترتفع ثم تهوي على خدي بصفعة قوية؛ لتركتني مذهولاً، وداخلي يمور بسبب الإهانة والظلم والشتيمة التي لم يخصني بها فقط؛ بل طالت أبي من دون جريرة اقترفتها؛ ولم يكن بوسعي فعل شيء لأثأر لكرامتي المهدورة؛ غير غصة في البلعوم.

أودعوني السجن مع الآخرين، وتلك الليلة جفاني فيها النوم وداهمت تفكيري مرارة الإهانة والذل، ولم أجد غير الله أشكو له هواني وظلامتي، فأمضيتها في الصلاة والدعاء على الظالمين إلى أن حلَّ الصباح، عندها أخرجونا وقادونا مباشرة إلى آمر المركز الذي كان برتبة عميد؛ وبدوره انهال علينا بأقذع الشتائم؛ وكأن الذي نلناه من المساعد لم يكن كافياً؛ ثم استدعى الحلاق وأمره بحلاقة شعرنا.

أزمعت منذ تلك اللحظة على الهروب من الجيش؛ فرجعت إلى البيت ولم أخبرهم بقراري، فليس من السهل إطفاء قلق أمي الذي يبلغ حد الألم علينا؛ وكذلك موسى الذي يرعانا بقلب أبٍ وأخٍ أكبر؛ كان ينبغي ترتيب وضعي اللاحق قبل كل شيء؛ فليس من السهل خداع الرفاق الحزبيين ولا سيما موات الذي يحصي أنفاس سكان القرية ويتحرى عن كل شيء؛ ولكن الصعوبة الأكبر كانت تأتي من قبل مفارز الانضباط العسكري التي تلاحق الهاربين والمتخلفين؛ أما الشيء الأهم فهو ألا أكون عالة على أهلي؛ فقررت استغلال الخبرة التي تعلمتها في إصلاح الأجهزة الكهربائية، وافتتاح ورشة؛ وبعد بحث قصير؛ عثرت على محل صغير منزو في القيصرية المتفرعة من سوق المجر، معروض للإيجار مقابل ثمن زهيد، أما عدة العمل اللازمة، مثل كاوية اللحام وجهاز قياس الفولتية، وأشياء أخرى فاشتريتها مستعملةً من بسطات سوق الجمعة؛ بدأت العمل وفكري منزاح إلى أمنيات وطموحات لكسب المال على قدر المغامرة التي أقدمت عليها.

مرت ثلاثة أسابيع مخيبة للآمال، فالعمل لم يجرِ كما كنت متوقعاً، ولم أجنِ حتى نصف أجرة المحل، كنت في مزاج متعكر، وحائراً بما عساي أن أفعله؛ متحاشياً موسى الذي بدأ يشك بوضعي، وسألني:

* متى ستلتحق بالمركز؟

لم يكن من طبعي الكذب؛ فتهربت من الإجابة وقلت:

* الله كريم.

فصمتَ؛ إلا أني رأيت عينيه تعجّان بالأسئلة والهواجس؛ نظراته تلك جعلت اليأس يتسلل إلى قلبي؛ إلا أني منيّت نفسي بنهاية سعيدة؛ مثلما يمنّي مقامر تفاقمت خسارته؛ بأن الحظ سيبتسم له في النهاية.

حلَّ يوم الجمعة؛ ودفعني الملل إلى التسكع كشخص تائه؛ فقادتني قدماي إلى سوق الجمعة، حيث تجتمع الناس في ساحة مكشوفة في ذلك اليوم؛ وسط صخب المساومات بين البائعين والمشترين؛ فوقعت عيناي على رجلٍ يعرض تلفزيوناً عاطلاً للبيع، ولم يكن مثل تلك البيوع مرغوبة، فالمشترين عموماً يشترطون فحص الأجهزة الكهربائية قبل شرائها؛ دنوت من الرجل وسألته:

* بكم تبيعه؟
* أعطني ثلاثة ألاف دينار وخذه.

كان ثمنه مغرياً، وقلت لنفسي: حتى وإن كانت الشاشة عاطلة؛ فبوسعي الاستفادة من دوائره الكهربائية السليمة كمواد احتياط؛ طلبت منه فتح غطاءه الخلفي لأتفحص إن كانت أجزاءه الكهربائية موجودة أم لا، فبعض المحتالين يفرغونه منها ويضعون حجراً مكانه ليبدو بالوزن الأصلي للجهاز؛ فأومأ لي بالإيجاب وتحققت من أن كل شيء في محله، وعدت به إلى المحل وأجريت عليه الفحص؛ لغاية عثوري على الجزء العاطل وقمت باستبداله، وهكذا حصلت على تلفزيون بألوان زاهية، وبعته بسعر جيد عوضني عن كساد الأيام الماضية؛ ومنذ تلك اللحظة تبدلت الأحوال؛ وأخذت أجني دخلاً جيداً؛ وصارت عندي حجة قوية أقنعت بها موسى بأمر هروبي من الجيش؛ أما أمي؛ فلطمت صدرها وخمشت وجهها عندما علمت بهروبي:

* يمة عيسى! ليش تهرب؟ علمود الفلوس! أبيع كليتي ولا أخليهم يگصون إذانك.

لم يكن من السهل تخفيف الفزع في قلب أمي من قرار الرئاسة بقطع صوان أذن الهارب من الخدمة؛ إلا بالولوج من بوابة أبي رحمه الله؛ ذكرتها برؤياه ذلك اليوم، وتحذير الملكين له؛ فأذعنت لكن الخوف عليَّ لم يغادر قلبها.

وفي غضون شهرين استرجعت ما فقدناه من أثاث البيت ودفعت لموسى نصف المبلغ المستحق عليه من مهر بتول، وعندما ذهب معها لاختيار طقم الذهب؛ لم يغب عن باله شراء حلقة ذهبية لها، واسترداد حلقة أمي منها.

واصلت العمل في محلي الصغير، لا تنغصني إلا مفارز الانضباط العسكري التي تجوب السوق وتتحرى المحال بمثابرة وجهد كبيرين، لأنها تفضي في كثير من الأحيان إلى القبض على هارب يمكنهم مساومته على دفع مبلغ من المال ليخلص نفسه؛ لذا كان من الحكمة الانتقال من ورشتي التي تقع في قلب السوق، والانتقال إلى أخرى تقع عند الطرف القصي، حيث توجد ورش تصليح متنوعة حسب المكائن والأجهزة المراد إصلاحها؛ ولم تنخفض وتيرة العمل رغم وجود محال تمارس ذات اختصاصي، ولهم سمعة طيبة اكتسبوها من خلال عملهم لسنوات طويلة بهذا المجال؛ لأني اكتسبت زبائن كثيرين عن طريق سوق الجمعة، وبات بعضهم يفضل بيع الأجهزة الكهربائية لي، على انتظار يوم الجمعة لبيعها في ذلك السوق.

خلال تلك الفترة، كان لزاماً عليًّ تحديد حركتي واختيار مسارات بعيدة عن مركز المدينة؛ فاشتريت دراجة هوائية لأتنقل بها من البيت إلى المحل وبالعكس، سالكاً سدة إرواء مزارع قصب السكر التي تمثل الحد الفاصل بين المدينة والحقول.

وعندما توجب عليَّ الذهاب إلى مدينة العمارة لشراء مواد احتياطية ضرورية لعملي، استخدمت الحافلة المخصصة لنقل موظفي السكر من سكنة مدينة العمارة إلى عملهم وبالعكس لتخطي السيطرة المقامة عند مشارف مدينة العمارة والتي تدقق في الهويات؛ ؛ وكانت تُسيَّر ثلاث مرات كل يوم، على عدد وجبات العمل الثلاث؛ بفارق ثماني ساعات بينها؛ وترجلت منها قبل بلوغ سوق المدينة بنحو نصف كيلومتر؛ ثم سلكت طريقي إلى شارع بغداد عبر أزقةِ وأحياءِ محلةِ القادرية والمحمودية، متجنباً المرور بشارع التربية أو شارع دجلة لأكون بمنأى عن أعين الانضباط العسكري الذين يطلق عليهم تسمية (الزنابير) أي الدبابير التي جاءتهم لأنهم يعتمرون بيريات حمر.

لم يستغرق شراء احتياجاتي من مواد، أكثر من نصف ساعة؛ ولكي أعود إلى المجر الكبير بذات الطريقة؛ عليَّ انتظار الحافلة التالية، وهو وقت طويل لا ينبغي أن أمضيه بالتسكع؛ ولا سيما أننا كنا في فصل الشتاء والشمس تودع الأفق في ساعة مبكرة؛ ولم يكن أمامي من خيار غير الذهاب إلى بيت عمي يوسف؛ ولأن بقائي عندهم كل ذلك الوقت سيتخطى وجبة العشاء حتماً؛ وهو ما سيجعلهم يشعرون بالحرج؛ في الوقت الذي يتدبرون فيه أمورهم بصعوبة بالغة حالهم حال الكثيرين؛ فكان الحل ألا أذهب إليهم بأيد فارغة، وأكون ضيفاً خفيف الظل.

مضت ثلاثة أشهر تشابهت فيها أيامي؛ أجني دخلاً جيداً؛ ولكن في تماس دائم مع الخطر؛ كانت مساحة ورشتي ثلاثة أمتار في ثلاثة، تنتصب على جدرانها رفوف تكدست عليها تلفزيونات عاطلة استفيد من بعض أجزائها كمواد احتياطية، وفي مقدمة الورشة ثمة طاولة خشبية أضع عليها التلفزيونات التي أقوم بإصلاحها، وتكون مفتوحة من طرف جلوسي؛ لكي تمنح رجليَّ حرية الحركة؛ كان محلي هو الثالث ضمن أربعة محال متجاورة، الأول كان مطعم فلافل كنت أرتاده عند فترة الغداء؛ لأني أعمل بشكل متواصل من الصباح لغاية المساء، والمحل الثاني المجاور لي كان حلاقاً، وهو الآخر يغنيني عن الذهاب للسوق من أجل حلاقة شعري، أما المحل الأخير فكان دكاناً متواضعاً لبيع المواد الغذائية؛ وفي الجهة المقابلة لي؛ كانت جميع المحال عبارة عن ورش تصليح للأجهزة الكهربائية والمنزلية.

وذات نهار، كنت قد شرعت بفتح الغطاء الخلفي لتلفزيون عاطل وانهمكت بفحصه وإصلاحه، دافناً رأسي في جوفه، وكان التلفزيون كبير الحجم ذا ست وعشرين بوصة، ويحجب رؤية الشارع عني، وبعد اكتشافي للقطعة التالفة فيه؛ عكفت على أستبدلها بأخرى من على الرف؛ وألقيت بنظرة عفوية إلى الخارج؛ لأتفاجأ بوجود مفرزة انضباط تقف تماماً عند المطعم؛ كانوا قريبين للغاية، ولم يكن بوسعي مغادرة ورشتي دون أن أثير انتباههم، وتوجب عليَّ التصرف بسرعة؛ فاختبأت تحت الطاولة؛ وما هي إلا لحظات حتى باتوا يقفون عند عتبة ورشتي، كتمت أنفاسي وتنامى التوتر بداخلي وعيني تراقبهم من خلال ثقب صغير في الطاولة، توقف أحدهم أمامي مباشرة وحجب عليَّ رؤية المشهد، ولم يعد يفصله عني سوى لوح الطاولة؛ مرت ثوانٍ من الارتياع، وكنت على وشك الاستسلام لحقيقة أن الأمر قد قضي؛ فلا يحتاج العثور عليَّ سوى الخطو متراً واحداً داخل الورشة ليكتشفوا مخبئي؛ فرحت أتلو بداخلي :(وجعلنا من بين أيدهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون).

إنزاح الرجل من مكانه، وخطى نحو الدكان المجاور، وسمعته يسأله:

* أين صاحب الورشة؟
* على الأغلب ستجدونه عند المطعم أو عند الحلاق ما دام لم يغلق محله.

كان الرجل يجيب بعفوية، فهذا هو دأبي في حالات مماثلة؛ غادرت المفرزة، وعندها نهضت وارتميت على الكرسي محاولاً إرجاع نبضات قلبي إلى طبيعتها.

علمتني تلك التجربة، أن كل خططي واحترازي غير كافية لتجنبني الوقوع بأيدي الزنابير، وكان المخرج الوحيد أمامي هو استخدام هوية الوظيفة الممنوحة لأخي موسى، رغم أنه أكبر مني بست سنوات، وسحنتي تختلف عنه بصورة كبيرة؛ ولكنها لم تكن عقبة لا يمكن تفاديها، لأن الصورة الفوتوغرافية كانت بالأسود والأبيض، ولا تبرز تفاصيل الوجه بشكل دقيق؛ أما العقبة الوحيدة فهي أن موسى بحاجة لهويته ولا سيما عندما يزور بيت عمي في العمارة.

ذات جمعة ذهب موسى لزيارة بيت عمي؛ ليحدد موعد الزفاف معهم بعد عيد الأضحى الذي كان على الأبواب، بعد أن توافر عنده المبلغ الكافي؛ أما أنا فكنت متردداً بين الذهاب إلى الورشة أو أخذ استراحة؛ ولأن أيام الجمع فيها رزق أكثر من بقية الأيام، فقد أغراني للذهاب إلى الورشة؛ وفعلاً استقبلت عدة تلفزيونات عاطلة، وأصلحت أخر؛ وعندما حلَّت صلاة الظهر؛ توضأت وفرشت سجادة الصلاة؛ وشرعت بالصلاة؛ كانت القبلة في الاتجاه المعاكس للشارع، بميلان حاد إلى اليمين، وحين دخلت في الركعة الثالثة؛ رأيت بلحاظ العين شخصاً يقف أمام المحل، وحسبته زبوناً ما، وقبل أن أستدير له بجذعي بعد أن أتممت صلاتي؛ قال لي:

* تقبل الله.
* منا ومنــــ ..

أخرسني الموقف عن إتمام الجملة، بعد أن اكتشفت أنه رفيق حزبي يرتدي الزي العسكري بلون زيتوني؛ استبعدت أن يكون قد أتى لغرض إصلاح جهاز ما؛ لأنه لم يكن بمفرده.

* هويتك بلا زحمة.

كان سؤاله كفيلاً بتجفيف الدماء في عروقي؛ وتحجر لساني؛ أوهمتهم بأني أبحث عن الهوية، فتشت جيوبي تباعاً، ثم فتحت الدرج، بعدها نظرت إلى وجهه، الذي كانت ترتسم عليه ابتسامة من نال مراده؛ وقلت:

* يبدو أني نسيتها في البيت.
* تفضل معنا.
* إلى أين؟
* إلى مدرسة الفارس العربي الابتدائية، سيكون عندك متسع من الوقت لترسل أحداً ما إلى بيتكم ليجلب لك الهوية.

في تلك الأثناء خرج جاري الحلاق من محله محاولاً مساعدتي وقال:

* سأبعث ابني إلى بيتكم على جناح السرعة؛ ليجلب بطاقتك الشخصية.

لم يكن الرجل الطيب يعرف أني هارب من الخدمة؛ ولكن بإرسال ابنه إلى بيتنا؛ ستعرف أسرتي ما جرى لي.

أُبلغتْ أمي بالخبر فأصابها الجزع، وشل تفكيرها، فأشارت عليها اختي الاتصال ببيت عمي ويطلعوا موسى بالأمر؛ لم يكن لدينا حينها هاتفاً ولا حتى بيت عمي؛ ولكن كل منا كان يحتفظ برقم هاتف أقرب جار له، فذهبت مريم واتصلت بجيران بيت عمي، وعلى إثرها عاد موسى، وبعد ساعة تقريباً، فُتح باب الصف الذي كنت محتجزاً فيه مع سيئي الحظ من أمثالي الذين أخذت أعدادهم تزداد مع الوقت، ونودي عليَّ، فقادني أحد الرفاق إلى عضو الفرقة الذي كان جالساً في غرفة إدارة المدرسة التي هو مديرها في ذات الوقت، وقال وهو يبتسم ابتسامة منتشية:

* أنت محظوظ لأن الأستاذ جلب هويتك في الوقت المناسب، لأننا كنا على وشك ترحيلك إلى دائرة الانضباط.

شكرته وقلبي يكاد يطير فرحاً لأن الأمر مضى على خير، فعلى أقل تقدير احتفظت بصوان أذني الذي كنت سأفقده.

قلت لموسى:

* الحمد لله أنه لم يشك بأن الهوية تعود لك؟

كان موسى متجهم الوجه، وحسبت مرد ذلك، لأني أفسدت عليه زيارته لخطيبته:

* لم أعطه هويتي؛ فالرجل يعرفني حق المعرفة فهو صديق موات وكثيراً ما زارنا في الشركة، ولا يمكنني خداعه بهويتي.
* بارك الله فيه إذن!
* لا بارك الله فيه.
* لماذا!؟
* أو تظن أنه أطلقك لأجل المعرفة التي بيننا؟! لقد دفعت له عشرة آلاف دينار.

ألجمتني الصدمة وتسمرت في مكاني: يا إلهي! عشرة آلاف دينار! إنه المبلغ الذي خصصناه لتغطية مصاريف الزفاف.

تملك قلبي غيض أفسد عليَّ فرحة خلاصي من المأزق الذي وقعت فيه؛ وشعرت بوطأة الغبن والمهانة والقهر؛ لاح في ذهني شكل الرفيق الحزبي الذي بدا مألوفاً، وأني رأيته من قبل، وأخذت أقلب ذاكرتي؛ وفجأة تذكرته.

(ظهر ذلك اليوم من عام 1985 يوم لن أنساه ما حييت؛ وقتها كنت في الثاني متوسط، وأثناء توجهي إلى مدرستي، شاهدت الشوارع غاصة بأفراد من جميع صنوف الأجهزة الأمنية فضلاً عن آخرين من الحزب، ولا أكاد أمر بشارع دون أن أراهم، منظرهم زرع الخوف حتى في قلوبنا نحن الذين لم نبلغ الحلم بعد؛ ودارت الأسئلة في عقولنا القاصرة باحثة من دون جدوى، عن إجابة؛ وبعد انتهاء الدرس الأول، جاء المدير وهو يرتدي الزي العسكري، وأبلغ المدرس بإخراجنا في مسيرة إلى ملعب نادي المجر الكبير، وفعل ذات الشيء مع بقية الصفوف، وقال بنبرة آمرة:

* كل مدرس سيكون مسؤولاً عن طلاب الشعبة التي يدرّس فيها، وأي تسرب للتلاميذ من المسيرة سيعاقب التلميذ والمدرس معاً.

عندما أصبحنا في الخارج وجدنا طلاباً من مدارس أخرى خرجوا بدورهم، فضلاً عن أعداد كبيرة من عمال معمل السكر والورق؛ معظمنا لم يبالِ بما يحدث، بل كنا مسرورين لتحررنا من مقاعد الدراسة؛ في داخل الملعب رتب القائمون على المسيرة جلوسنا بحيث شغلنا نصف الملعب لنشرف مباشرة على ساتر ترابي بارتفاع ثلاثة امتار وبطول ستة أمتار، وثمة عمودين وضِعا أمام الساتر مثبتين بالأرض، وكانت مكبرات الصوت تصم الآذان وهي تصدح بأغانٍ حماسيةٍ؛ وبعد إن امتلأت ساحة الملعب بالحشود، صمتت مكبرات الصوت؛ ثم اعتلى منصة الخطابة؛ عريف الحفل الذي يرتدي الزي العسكري أيضاً؛ وألقى كلمة تغني بها بالحزب والقائد وأمجاد الثورة؛ وبعد خطبته العصماء تلك قَدِمَتْ سيارة وترجلت منها مجموعة من الملثمين ومعهما شخصان معصوبا الأعين وأوثقوهما على العمودين، ثم تُليَّ القرار بتنفيذ حكم الإعدام بحقهما، لارتكابهما جريمة الهروب من الخدمة العسكرية؛ وعند ذكر اسم أحدهما ذهلت ولم أستطع تصديق ما سمعته، التفتُ إلى صديقي عليّ الذي يقف بجواري وسألته:

* أهذا أبوك؟

تحجر لسان علي؛ وغص فمه بالكلمات؛ كانت دموعه تسيل على خديه بصمت، وبالكاد سمعته يقول:

* (بوية).

بقي ذلك الشهد منقوشاً في ذاكرتي؛ وتذكرت أن الرفيق (أبو عراق) هو ذاته الذي اعتلى المنصة يومذاك).

**-7-**

ما دفعه موسى يعادل راتبه لثلاثة أشهر، وكانت الحيرة تتبدى على وجهه باحثاً عن حلٍ نتدبر به تكاليف ليلة الزفاف، وقال:

* عرَضتْ عليّ بتول ذهبها؛ لأتصرف به؛ ولكني رفضت.
* بتول بنت أصيلة؛ ولكن حسناً فعلت برفضك.

لم يكن المبلغ الذي أخذه منا (أبو عراق) الخسارة الوحيدة، لأنه توجب عليَّ إغلاق الورشة، فلا أضمن أنه لن يعاود اعتقالي كرة أخرى ليبتزني؛ فارتأيت ترك المحل نهائياً؛ وبعت أغراض ورشتي مقابل خمسة آلاف دينار، أعطيتها لموسى، وقلت له:

* ليس بالضرورة شراء عجل للوليمة، ونكتفي بشراء نصف الكمية المطلوبة من الجزار؛ أما المتطلبات الأخرى التي تستوجب النفقة، فيمكننا دفعها بالآجل؛ على أن نسددها من هبات المدعوين وهداياهم.

وهكذا تم العرس بعد قرابة عام ونصف من التأجيل، كان موسى سعيداً وهو يدخل طوعاً عش الزوجية، على عكسي تماماً؛ فإن مكوثي في البيت كان أشبه بالإقامة الجبرية؛ ولا سيما أن وضعنا المادي صار صعباً من دون الدخل الذي كنت أسهم فيه، وعلاوة على ذلك فإننا ازددنا فماً آخر، هي بتول ابنة عمي.

كان عليَّ البحث عن عمل ثابت، فلجأت ثانية إلى صديقي عليّ لأعمل معه في هدم الدور؛ ولكن الفرص المتوافرة كانت قليلة جداً فخلال شهر حصلت على أجر كنت أجنيه سابقاً في يوم واحد من ورشتي؛ إلا أن حدثاً غير متوقع مكنني من الحصول على عمل ثابت.

حدث ذلك بعد ثلاثة أشهر من إغلاق ورشتي؛ ففي تلك الآونة ازدادت عمليات المعارضة ضد المقرات الحزبية في المدينة؛ مستغلين الغطاء الكثيف لمزارع قصب السكر الممتدة على مساحة شاسعة لا يدرك نهاياتها البصر وكأنها غابة، فجعلوها موئلاً لهم؛ ذلك اليوم جرد الحزب حملة لتفتيش الحقول؛ يقودها موات و(أبو عراق) وأخذوا يجوبون حقول قصب السكر بحثاً عن (المخربين)؛ الذين بَلَغَهُم خبر تلك الدورية؛ فأعدوا لهم كميناً عند محطة خفض الجهد الكهربائي؛ وعندما دخلت الدورية في منطقة الكمين؛ فتح المسلحون عليها النار وقتلوا الرفيق (أبو عراق) وأصابوا ثلاثة آخرين؛ وكانوا على وشك الإجهاز على البقية؛ لو لم يتدخل حارسا المحطة لإسناد الرفاق، وقاما بإطلاق النار على المسلحين الذين باغتتهم تلك المساندة فانسحبوا صوب حقول قصب السكر.

في اليوم التالي ترقب مسلحو المعارضة، حراس المحطة منتظرين ساعة استبدال وجبة الحراسة وقتلوا الحراس الأربعة، بينما نجا مشغل المحطة بعدما أقفل الباب عليه، ثم انسحب المسلحون بهدوء.

استشعر النظام الخطر بعد العمليتين الأخيرتين؛ فشنت عناصر الأجهزة الأمنية والحزبية حملة واسعة لتمشيط المنطقة؛ ولكنها لم تأتِ بنتيجة لها أثر.

وعلى قول المثل "رب ضارة نافعة"، فبعد حادثة مقتل الحراس؛ طَلَبَتْ المحطة توظيف آخرين بصفة عقد؛ إلا أن الخوف من مصير مشابه للحراس المقتولين حال دون التقديم عليها، وهنا جاءني صديقي عليّ وتبدو عليه العجلة، وقال لي:

* جهز نفسك بسرعة وتعال معي.
* إلى أين؟
* لنتعين حراساً في المحطة.

قلت له وقد اعتراني الذهول:

* أتود أن نقتل!؟
* الأعمار بيد الله، وهذه الفرصة لا تتكرر، فلا تتردد.

بقيت حائراً ولم أحر جواباً، وبعد صمت وتردد مني؛ أردف قائلاً:

* سأسرك شيئاً لم أقله لأي شخص سواك؛ فأنت صديقي المقرب وأعلم مقدار التزامك؛ قائد المعارضة في المنطقة؛ هو قريبي؛ فلا تخشَ على حياتك من هذه الناحية.

عندها قررت المجازفة؛ وجرى قبولي دون أن يتحققوا من موقفي من الخدمة العسكرية، وهو سياق لا يحيدون عنه في غير هذه الظروف؛ كان الأجر متواضعاً قياساً لما كنت أجنيه من الورشة؛ ولكني صرت أتنقل بحرية أكبر بفضل أمر تعييني الصادر عن إدارة المحطة؛ بيد أني لم أتخيل أن خطوتي هذه ستضعني أمام موات وجهاً لوجه.

بقيت على هذا الحال لمدة خمسة أشهر، وذات يوم كنت أتحضر للذهاب إلى مناوبتي، حينما جاءني عليّ، الذي كان معي في ذات المناوبة، والقلق بادٍ على وجهه، وقال:

* جئت لأحذرك، اليوم ذهبت إلى المحطة لاستلام راتبي، وفي تلك الأثناء جاء موات ووجهه مكفهر، وسأل عنك بنبرة ملؤها الغضب، ولما أخبره مدير المحطة بأن دوامك في الوجبة المسائية؛ انفجر غضبه ووبخ المدير، وقال له :(كيف توظف شخصاً هارباً من الخدمة العسكرية)؛ كان قادماً بنية إلقاء القبض عليك.

كنت محظوظاً لأن عليّ حذرني قبل أن يأتي موات ليقتحم بابي ويعتقلني، ولا بد أن الذي أخره عن المجيء هو اجتماع أو شأن حزبي؛ جمعت على عجالة بعض أغراضي ووضعتها في كيس وخرجت دون توديع لأمي أو مريم وبتول، وتوجهت صوب مرأب السيارات، متلفتاً ورائي، وعيناي تراقبان الأنحاء لألا أصادف مواتاً؛ ركبت الحافلة المتوجهة إلى مدينة العمارة وقصدت بيت عمي.

كان عمي يوسف معلماً؛ تقاعد قبل الأوان منذ عامين، ومن يتمعن في صورته التي كانت بالأسود والأبيض المعلقة على جدار غرفة الضيوف سيحسبه شخصاً آخر، ففي الصورة كان عنفوان الشباب وفورته يتبديان من بريق عينيه؛ أنيق كبقية معلمي تلك الحقبة من الزمن؛ يهابه التلاميذ، وعندما يبدأ شرح الدرس ينصت له الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، والويل لمن يقصر في تحضير واجباته، فعصاه ستجد طريقها إلى راحات أيديهم، ولم أكن أنا استثناء منهم عندما كنت معه في مدرسة الوثبة النموذجية؛ أما اليوم، فتراه مجرد حطام إنسان، تقاعده لا يكفي حتى لشراء علاج مرض ضغط الدم الذي ابتلي به.

نشأ عمي ملتزماً دينياً ومستقيماً شانه شأن عائلتنا بيت الملا محمد، التي عُهِدَ عنها أن أفرادها مسالمون ولم ينخرطوا بالأحزاب الدينية ولم يعارضوا الحكم إلا بأضعف الإيمان؛ وفي المرات القليلة التي ينتقد فيها القائد وحزبه أمامنا؛ فإنه يفعل ذلك همساً حتى لا نكاد نسمعه؛ ولأن راتب التقاعد لم يعد يكفي؛ لذا اضطر لعمل طاولة خشبية مدرجة وضعها أمام بيته، عليها علب سجائر متنوعة يبيعها ليضيف لدخله بضعة دنانير أخرى؛ وجدته جالساً عند الباب فحييته وقبلت يده وجلست قربه؛ وكانت تربطني بعمي وشائج علاقة قوية؛ حدثته عن كل شيء وكان يهز رأسه متألماً؛ وقال معاتباً:

* أما كان الأجدر أن تخدم مكلفيتك، فما هو إلا عام ونصف وتُسرح من الخدمة، ماذا يقول جيل الخمسينات والستينات الذي خدم بعضهم عشرة أعوام وسط حرب طاحنة لم تبقِ منهم إلا القليل.
* عمّي! أترضى أن يشتم أبي وأنعت بالكلب لذنب لم أقترفه!؟ ثم ما الجدوى من الوظيفة؟ والراتب فيها لا يكفي لمجرد الخبز! ألا ترى العدد الهائل من التدريسيين والطلبة وهم يتسربون من الدوام! أعرف صديقاً كان مدرساً افتقدته لمدة طويلة، وفي أحد الأيام سألت أخاه عنه، فقال ووجه يفيض شكراً لله: إنه بأفضل حال فهو يعمل حمالاً في ميناء العقبة الأردني. فتخيل ما حلَّ بنا.
* وإلى متى ستبقى هارباً؟
* سيفرجها الله قريباً، فهذا النظام مجرد فقاعة جوفاء؛ وفي طريقه إلى الزوال.
* ونعم بالله.

ران الصمت بيننا وبدا عمي شارد الفكر؛ لربما تصفحت ذاكرته وجوه معارفه وأصدقائه الذين حداهم الأمل بإسقاط النظام؛ فغيبتهم السجون والمقابر.

مضت ثلاثة أيام وأنا في بيت عمي وحدود حركتي لا تتخطى عتبة الباب، أجلس فيها قرب عمي وأحياناً أنوب عنه في بيع السجائر، إلا أن عقلي طيلة الوقت كان مستغرقاً في البحث عن فرصة عمل تدر دخلاً جيداً، وتكون مأمونة الجانب، ثم خطرت لي فكرة أن يقوم عمي باستئجار ورشة في سوق مصلحي الأجهزة الكهربائية، يكون عمقها مناسباً، لفصلها بقاطع خشبي؛ فأقوم بإصلاح الأجهزة العاطلة متوارياً خلف القاطع، أما عمي فسيدير واجهتها؛ يستقبل الأجهزة، ويستوفي أجور الصيانة التي سأتقاسمها معه.

استحسن عمي الفكرة.

تلك المساحة التي لا تتخطى الأثني عشر متراً، والمعزولة عن العالم إلا من ثقب صغير أرى من خلاله ما يحدث في القسم الخارجي من المحل منحتني الشعور بالأمان والرضا؛ وبهذا الضربُ من الوحدة والانزواء، وكذلك مؤازرة عمي تخطيت رهاب الميادين والمناطق المفتوحة؛ كنت مثل شخص يتجنب البلل جراء المطر باستخدام مظلة أو الوقوف أسفل شرفة، ويترقب بصبر لحظة انقطاعه؛ غير أن غيومنا السود كانت تصب علينا الموت والقهر.

مضت خطتنا على أحسن حال وجنيت هذه المرة ما يكفي لانتشال عائلتي وعائلة عمي من الفاقة، كنت بالنسبة لهم كالقلب الذي يزود الجسم بالدم، أما عمي فكان كالرئتين اللتين تمنحانهم الهواء، نبكر كل صباح في الذهاب إلى الورشة، قبل أن تفتح المحال المجاورة أبوابها وترتفع وتيرة الحركة وسيل الضجيج؛ ونغادر بعد أن يخمد السوق؛ توجب عليَّ ضبط نداء الطبيعة حتى لا أضطر لاستخدام دورات المياه التي غالباً ما تكون متاحة في الجوامع التي لا تغفل عنها عين الرقيب الأمني؛ ورغم ذلك حدثت أمور وضعتنا عند عتبة الخطر؛ فذات مرة أصلحت تلفزيون امرأة أربعينية، وعندما جاءت لأخذه، عرضت على عمي جسدها بدل النقود، فانفلت عقال غضبه وأخذ يكيل لها الشتائم، ولم يتوقف إلا بعد أن تنبه إلى أن بعض المارة وكذلك أصحاب المحال المجاورة متجمهرين حوله، فصمت بعد أن أمرها بأخذ التلفزيون والمغادرة دون مطالبتها بالأجر، فعاتبْتُه بعدها:

* ما كان عليك أن تنفعل هكذا، فلربما افتضحنا بسببه.
* والله يا عيسى! لو أنها ادعت الفقر وعدم امتلاكها المال؛ لأسقطت عنها الأجرة.
* ولكن ألا يحتمل أن الدنيا أوصدت أبوابها بوجهها، ودفعها الفقر إلى امتهان البغاء.
* إلا الشرف يا عيسى، إلا الشرف، المرء يموت دون عرضه وشرفه، كنوز الدنيا لا تعدل الشرف.

عندها تذكرت مقطعاً من قصيدة المومس العمياء للسياب

"ومن الذي جعل النساء دون الرجال،

فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟

الله -عز وجل- شاء

ألا يَكنَّ سوى بغايا أو إماء

أو خادمات يستبيح عفافهن المترفون

أو سائلات يشتهيهن الرجال المحسنون!"

أي ضيم يا ترى دفعها إلى تلك الهاوية؟ فلم تجد غير جسدها ليمنحها حبلاً للتشبث بهذه الحياة المجدبة! هل هو زوجها الذي خسرته في الحرب مع إيران؟ أم ابتلعه الموت على طريق الانسحاب من الكويت؟ أو غيبته المقابر الجماعية في الانتفاضة الشعبانية؟ أذنبها أنها ولدت في بلد يعشق قائدها رائحة الموت؟ وجروحه تتناسل ولا تبرأ!

كانت رفقة عمي يوسف ممتعة، تحدثنا عن كل شيء، عدا السياسة التي كان يتجنب الخوض فيها؛ عن الماضي الجميل، عن ظروف معيشتهم آنذاك حينما كنا جميعاً نسكن في بيت واحد، هو بيت جدي؛ عن شقاوتي عندما كنت طفلاً، ومواقفَ مُسحَتْ من ذاكرتي:

* في أحد الأيام زارنا حسين ابن عمي قادماً من بغداد، وكان موعد صلاة الظهر قد مضى عليه بعض الوقت، وأراد أن يصلي؛ ففرشت له السجادة وتركته في الاستقبال بينما ذهبت أنا إلى المطبخ لأرى إن كان الغداء قد جهز أم لا، وفجأة سمعته يجهر بالصلاة بأعلى صوته، فاستغربت ذلك لأن صلاة الظهر لا يجوز فيها الجهر؛ ولكنه واصل الجهر وبصوت أعلى؛ فقلت لنفسي لأذهب وأتحقق فلربما حدث له شيء ما؛ دخلت غرفة الضيوف فماذا وجدت!؟ وجدتك أنت وقد تسللت إلى الغرفة، وبينما كان حسين في وضع السجود، امتطيت ظهره وعندما نهض للقيام إلى الركعة التالية؛ لم تتركه بل تعلقت برقبته مما جعله يختنق فأخذ يجهر كي أنقذه منك ولا سيما أنه لم يشأ قطع صلاته.

عدا تلك القصص التي تكرر بعضها، فقد كنت أزجي الوقت بقراءة روايات وكتب أدبية احتوتها مكتبة عمي المتواضعة؛ وكذلك بمتابعة الأخبار السياسية؛ علَّ الخلاص يأتي ونسمع البيان رقم واحد؛ في ذلك العام شَغل الناس الحدث الأهم الذي هز العائلة التي تسلطت على رقاب العراقيين وهو هروب حسين كامل إلى الأردن وإعلان انشقاقه عن صدام، ذلك الشرطي الذي منحه صهره رتبة فريق أول، والموهوم بأن يشكل معارضة للإطاحة بالنظام؛ ولكني سمعت لقاء مع بعثي منشق يدعى حسن العلوي وهو يقول في مقابلة على إحدى محطات الراديو الغربية: (كانت هناك فرصتان للإطاحة بصدام، الأولى عام 1991، أثناء حرب عاصفة الصحراء عندما وصلت القوات الأمريكية إلى مدينة الديوانية، ولم تواصل زحفها لإسقاطه؛ والثانية عندما كان حسين كامل على مقربة متر واحد من صدام ولم يحاول قتله، وما تبقى هو إرادة الله فقط).

عندما نبذته المعارضة مثل كلب أجرب؛ لأنه أحد أعمدة الاستبداد؛ اضطر حسين كامل للعودة إلى العراق في شهر شباط من عام 1996 لاعقاً خيبته؛ بعد أن أعطاه صهره الأمان؛ ثم غدر به عندما أذن لعشيرته إيقاع القصاص به؛ كان مقتله فرحة كبيرة زرعت في قلوب الناس؛ ولكنها على المقلب الآخر، رسالة بأن قبضة النظام ما زالت قوية.

في العادة كان عمي، يندهني لصلاة الفجر؛ تلك المرة لم يوقظني هو، بل ساعتي البيولوجية؛ فوجدته مستلقياً على الأريكة ووضعه ليس على ما يرام، سألته:

* بم تشعر؟
* بصداع وخدر في جانبي الأيمن.

كانت تلك علامات السكتة الدماغية، فأخذته إلى المستشفى وبعد أن أجريت له الفحوصات شخصوا الحالة عنده، على أنها سكتة دماغية إقفارية، وأدخلوه غرفة العناية المركزة وقالوا بأنه ينبغي حقنه بمنشط البلازموجين في الوريد، وأن صيدلية المستشفى لا يتوافر فيها هذا العلاج ويتحتم عليَّ شراءه من خارج المستشفى، وكلما أسرعت بذلك يكون شفاءه أسرع.

تركت زوجة عمي عنده واستأجرت سيارة أوصلتني إلى أقرب صيدلية في شارع التربية واشتريت العلاج باهظ الثمن، غير آبه بمفارز الانضباط المتمركزة عند التقاطع مع السوق المسقوف؛ فحياة عمي أغلى عندي من حريتي؛ وبعد عدة أيام خرج عمي من المستشفى، ولم تعد صحته تؤهله العمل في الورشة، فجازفت للذهاب إلى المحل وسلمت الأجهزة التي كانت في المحل لغرض إصلاحها إلى أصحابها، وبعدها صفيت المحل، وتركت بيت عمي وعدت إلى بيتنا في المجر، مستقلاً حافلة الموظفين.

**-8-**

حلَّ فصل الربيع ثانية وتفتحت براعم الأغصان وأزهرت، ومعه حل على روحي شعور رائق يدفعني لوضع خط شروع جديد لمسيرة حياتي، ولعل لبلوغي الخامسة والعشرين من العمر، تأثيراً ضاغطاً على تفكيري بمستقبلي؛ فأقراني تسرحوا من الجيش منذ عام وأصبح لهم الخيار بين الوظيفة أو العمل الحر؛ وبعضهم تزوج وكون أسرته، فرغم قساوة الحياة لابد لنا التأقلم معها، وأن نكون مطاوعين لها؛ فحتى الحديد يلين عندما يتعرض للنار. تعرضنا في زمن الضرورة إلى ضرر فادح؛ ولكننا سنسترجع صلابتنا في يوم ما، كما يفعل الحديد.

كان النظام يحاول بشتى السبل احتواء الفارين والمتخلفين عن الخدمة، فهم يشكلون خطراً أمنياً عليه، فبعضهم يضطر لممارسة اللصوصية وقطع الطرق التي تفشت كثيراً، وما عاد السفر ليلاً، متاحاً حتى على الطرق الخارجية الرئيسة، وبعضهم الآخر ينضم إلى قوى المعارضة التي تغللت في الأهوار والقرى النائية؛ لذا لجأ لإصدار قرارات العفو واحداً تلو الآخر، وكان آخر قرار مغرياً بشكل جعلني أذعن له؛ فهو يمكن الهارب من الحصول على كتاب العفو من أقرب فرقة حزبية، والالتحاق بأقرب وحدة عسكرية لمحل سكناه.

قلت لموسى:

* سأذهب غداً إلى الفرقة الحزبية ليعطوني كتاب عفو، وسأحاول أن يلحقوني بإسالة الفيلق الرابع، فهي تقع عند نهر دجلة وتكاد أن تكون معزولة عن الجيش، والدوام فيها لغاية الظهر، وبذا سيتاح لي الوقت لأفتتح ورشة تصليح.

وفي حدود الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي توجهت إلى الفرقة الحزبية التي تبعد عنا قرابة كيلومتر واحد. تطلعت بانتشاء؛ إلى السماء التي غطتها غيوم رمادية؛ وثمة سحابة سوداء قادمة من الجنوب تنذر بهطول المطر قريباً؛ وفي السمت ثمة سرب كبير من الحمام الداجن يحوم في حلقة، ومربيها الذي اعتلى سطح داره، يحثها على مواصلة الطيران، بالصفير والتلويح بقطعة قماش؛ ولأول مرة منذ عامين؛ سرت بخطوات واثقة دون الالتفات إلى الخلف أو الجانبين؛ صادفت في طريقي وجوهاً أعرفها ولم ألتقِ بها منذ مغادرتي، وثمة بائع متجول كان يسير أمامي دافعاً دراجة هوائية كدّس فوقها أوانٍ منزلية، عرفته من نبرة صوته التي ينادي بها لشراء بضاعته؛ ذاك كان مدرسي لمادة الأحياء في الإعدادية؛ وقبل بلوغي الفرقة بنحو مائتي متر، مرقت من جانبي سيارة بيك آب وتخطتني بعدة أمتار ثم توقفت وترجل منها رجال ببِزات زيتونية وطوقوني بأذرعهم وقادوني إلى السيارة؛ فتفاجأت بموات جالساً في مقدمة السيارة؛ قال بنبرة متهكمة:

* حمداً لله على السلامة، (هاي وين الغطة)؟
* الله يسلمك.
* (وين رايح)؟
* (والله رايح للفرقة علمود كتاب عفو).
* (مو تدلل، إحنا هم رايحين هناك وراح نوصلك ويانه).

لم تخفَ عليَّ نبرته التهكمية المريبة، وأخبرني حدسي أنه يضمر شراً، فالرجال ما زالوا يحيطون بي وكنت كالأسير وسطهم.

أدخلوني الفرقة وتوجه موات مباشرة إلى الكاتب وهمس له بشيء لم أتبينه، فقام بطباعة كتاب على الآلة الطابعة ثم وضعني في غرفة مجاورة لمكتبه وأقفل عليَّ الباب؛ خمنت أن ما يفعله متعلق برشوة ينوي ابتزازها مني؛ بعد ربع ساعة فتح الباب وأركبني السيارة مع الرفاق الأربعة الآخرين، وسرنا لغاية بلوغنا الانضباط العسكري؛ حينها أنزلوني؛ وسمعته يقول للحرس:

* جئنا لتسليم هارب.

راعني ما قام به موات بحقي؛ فقد كان عملاً خسيساً ونذلاً؛ ما الذي دفعه ليفعل بي هذا؟ فلست سوى شاب ركن زهرة شبابه وأحلامه على رفوف الانتظار، ليجنب عائلته ويلات الفقر والفاقة! التسليم قابضاً غير التسليم نادماً، ويترتب عليه رفع القضية إلى المحكمة العسكرية التي ستصدر حكماً بسجني لمدة قد تساوي المدة التي كنت هارباً فيها.

ولكي تكون الحالة أسوأ ما يمكن؛ فقد جرى تسليمي للانضباط بكتاب رسمي، وهذا يعني أن قضيتي ستسلك الطرق الرسمية حتماً، ويقطع الطريق أمام إخلاء سبيلي مقابل رشوة أدفعها للانضباط.

أما أنا فلست سوى شاب ركن زهرة شبابه وأحلامه على رفوف الانتظار، ليجنب عائلته ويلات الفقر والفاقة؛

استجوبني الضابط سائلاً عن وحدتي التي هربت منها وكم مضى عليَّ هارباً؛ فأجبت على كل أسئلته، كنت حينها كالغريق الذي يحاول التشبث بأي شيء ينجيه من الغرق، أقسمت له بأني كنت على بعد خطوات عن الفرقة الحزبية، بقصد استحصال كتاب عفو؛ فنظر إليَّ نظرة ازدراء وقال متهكماً:

* أتريد مني أن أصدقك، وأشكك بالحزب؟

أدركت أن لا جدوى من تظلمي لأن لا أحد سيصدق كلامي؛ لقد أسقط في يدي وحسم الأمر، وهنا أخذت أبحث عن طريقة لإخطار أهلي لأن دعمهم لي للمدة القادمة سيمكنني من تخطي الأيام الحالكة التي تنتظرني؛ أشار الضابط للحرس ليضعني في الزنزانة، فقام هذا بفتح الباب وأدخلني بدفعة تلقيتها على ظهري من كفه، لا أعرف سبب أقدامه على فعلها! كانت الغرفة مكتظة بنحو عشرين شخصاً جالسين على بطانيات يفوح منها عطن قاتل؛ فحشرت نفسي بينهم؛ والغيظ والشعور بالحيف يجعلان دمي يغلي في عروقي، ولو قيض لي أن أحظى بموات حينها؛ لاقتلعت حنجرته بأسناني.

حل المساء وكنت أشعر بالبرد والجوع الشديد لأني لم أذق الطعام منذ الصباح، وحال الموقوفين الآخرين مثل حالي؛ فتح الحرس الباب وقدم لنا صينيةً صغيرة فيها رز عليه بعض الحساء وملعقة واحدة، كانت بالكاد تكفي شخصين أو ثلاثة، طلبنا من الحرس أن يمنحونا المزيد؛ فرد علينا:

* فضلٌ منا ما نقدمه لكم، فهو مستقطع من حصتنا؛ لأنكم غير منشورين علينا في قائمة الطعام.

أمام هذه الحقيقة المؤلمة دارت الصينية علينا ليتناول كل منا مقدار ملعقة واحدة لا غير.

صبيحة اليوم التالي وضعوا الأصفاد في يدي وأخذني مأموران إلى المرأب ليعيدوني إلى وحدتي في مدينة المسيب؛ كنت أشعر بالمهانة والإذلال، وأتفحص وجوه الناس علّني أجد شخصاً أعرفه؛ ليبلغ أهلي عن مصيري، فلا أجد غير وجوه تنظر إليَّ بألم وشفقة؛ من بعيد لمحت شخصاً تربطني به قرابة بعيدة بعض الشيء، ورجوت المأمورين أن يقوداني إليه لينقل وضعي إلى أهل فلم يمانعا؛ وللأسف كان ذلك القريب يتحدث معي ببرود ينم عن حقارة، وعلمت لاحقاً أنه لم يجشم نفسه عناء نقل رسالتي.

ركبنا الحافلة التي قادتني قبل عامين على ذات الطريق، وكم تمنيت أن توقفنا مفرزة للمعارضة كما في المرة السابقة، وبقيت أراقب الطريق مرحلة بعد أخرى؛ ولكن كان ظني عبارة عن سراب.

كنت أتضور جوعاً، لدرجة أن معدتي المنكمشة أنستني ما أنا به، وفجأة شعرت بيد تَرْبِتُ على كتفي من خلفي؛ كانت يداً موشومة ومتغضنة لامرأة مسنة أخذتها الشفقة عليَّ، وناولتني شطيرة فيها بيضة وطماطم ومخللات؛ كانت تلك هبة ما كان علاء الدين يطلب غيرها من جِنيَّ مصباحه.

وصلنا عصر ذلك اليوم، إلى مركز تدريب الهندسة الآلية، وأودعوني سجن المركز.

لم يكن حال السجناء الذي لا يتخطى عددهم العشرين كما عهدناه في الأفلام عن السجون؛ حيث تجد عتاة المجرمين مسيطرين على بقية السجناء؛ فنصف عدد الموقوفين يمضون عقوبات قصيرة لمدة يوم أو اثنين، أما البقية فهم محكومون بمدد أطول متفاوتة؛ استقبلوني بما ينم عن ود، وأمطروني بأسئلتهم عن سبب سجني؛ وكان من بين هؤلاء شاب مسيحي في العشرين من عمره يدعى أثير، متخرج عن المعهد الفني، كان أشقر ووسيماً وتحسبه بطلاً يطل عليك من فيلم هوليودي؛ أما الشيء الأغرب؛ فإن اسم أبيه، إسرائيل.

حل المساء وقدموا لنا الأرزاق وكان لي فيها نصيب لأن قلم الوحدة أدرجني بما يعرف القسم الثاني من النشر؛ ولما حان موعد النوم طرحت جسدي على فراش خفيف تركه سجين سابق، ولربما توارثه المئات قبل أن يصل إليَّ؛ وتبرع لي أثير ببطانية تخصه؛ وضعت رأسي على الوسادة محاولاً النوم؛ ولكن من دون جدوى، فصورة موات كانت تشخص في مخيلتي وتشعلني غيضاً؛ كلما أغمضت عيني،

ولم يغالبني النوم إلا بعد صلاة الفجر.

بعد يومين قدموني إلى لجنة تحقيقية من ثلاثة ضباط، دونوا أقوالي، ثم عرضوني لاحقاً، أمام المحكمة العسكرية التي أصدر فيها القاضي الذي كان برتبة عميد حكماً بالسجن لمدة تسعة أشهر، ثم أعادوني لسجن المركز؛ كان همي الوحيد حينذاك أن أعثر على أحد الجنود، من سكنة قضاء المجر أو مدينة العمارة، أو أي مكان قريب ليوصل رسالة إلى أهلي الذين استغربت عدم اكتراثهم بي لمدة أسبوعين من حبسي، وكنت أظن أن قريبي ذاك أبلغهم بأمري، فكنت أتوسل جنود نوبات الحراسة، للسؤال عن هكذا شخص؛ ولحسن حظي، ناداني جندي من الكوة التي على باب السجن الحديدي، وسألني عن عنوان أهلي ليبلغهم رسالتي، فهو على وشك التمتع بإجازة.

جاء موسى لزيارتي حالما وصلته رسالتي، وبدت عيناه غارقتين بالحزن؛ قال:

* كنت متوقعاً أن موقفاً كهذا سنخوضه يوم كنت هارباً بمحض إرادتك؛ ولكن أن يحدث في الوقت الذي نويت فيه تسليم نفسك، وأن يجري بتلك الطريقة الخبيثة؛ فذلك شيء محزن؛ أنا الملام بما جرى لك؛ فلو تمهلت بموضوع الزواج، لما وصلت أنت إلى هذا الحال!
* الحمد لله أنا بخير؛ فنحن هنا نأكل كبقية جنود المركز، ولا أحد يملي علينا ما يريده؛ ثم أني لا أشعر بالفرق بين حالي الآن وبين السنوات الثلاث السابقة؛ فهي أيضاً كانت حالة سجن وعزلة من نوع ما.

كانت مكابرتي وتظاهري بأني متماسك، تجعل قلبي هشاً مثل أوراق الخريف؛ فالحرية إحساس وشعور ولا ترتبط بمكان محدد، فثمة سياسيين فضلوا السجن على إطلاق سراحهم، مقابل التخلي عن مبادئهم؛ لأنهم اعتقدوا أن الحياة في الخارج من دون مبادئ، هي العبودية بعينها؛ لم أشعر آنذاك بعزلة حقيقية رغم خطواتي المقيدة في مسارات محدودة؛ فقد رأيت آفاق حريتي في وجوه أهلي التي تشرق بالسعادة والبهجة، وحكايات عمي التي تطوف بي إلى أزمنة بعيدة، وعن شقاوتي أيام طفولتي التي لم تسجلها ذاكرتي.

بعض العزاء لموسى؛ أنه كان ضابطاً لثلاث سنوات، في حقبة أشد قساوة وقهراً، كانت العقوبة الوحيدة حينها، بحق الجنود الهاربين والضباط المتخاذلين، هي الإعدام.

طمأنني موسى عن أمي وعن بقية أفراد الأسرة، وقبل أن يغادر؛ قلت له:

* لا تتعب نفسك بزيارتي، فأنت مرتبط بوظيفة.

وقبل أن يودعني مد يده في جيبه وأخرج مبلغاً من المال، فعز عليَّ أخذه منه؛ لكنه استحلفنني بروح أبي إلا أن آخذه. أما أمي التي لا تتنازل عن عاطفتها وحبها لنا تحت أي ظرف، فقد كانت تزورني كل شهر بعدما تستلم راتبها التقاعدي؛ تأتي وعلى وجهها ترتسم ابتسامة مخاتلة، تخفي خلفها قلباً كسيراً، وحزناً أبكم لا تبديه أمامي؛ وطيلة وقت المقابلة المحدد بساعة من الزمن، تبقى يدها قابضة على يدي؛ وكأن يدها الحبل السري الذي يمد الجنين بأسباب الحياة؛ لكن عينيها الغارقتين ببحر من الأسى كانتا تفضحانها؛ أمي تلك الشمعة الوهاجة التي تضيء أمسيات بيتنا، كان يحزنني رؤية وجهها ذبلاً بسبب العوز والمصائب التي حلَّت على رأسها.

كان الجنود الذين يتناوبون على حراسة السجن نوعان، فمع بدء الدوام ولغاية الساعة الثالثة عصراً؛ تقع مهمة الحراسة على عاتق الملاك الثابت للمركز من المتطوعين، بعدها تنتقل الخفارات إلى طلاب الدورات؛ وتتكون كل مجموعة، من آمر للحرس وثلاثة جنود؛ وكانوا يخرجونا مرة واحدة في الأسبوع لإحصاء الموجود، وحينها ينبغي أن تكون رؤوسنا حليقة وكذلك أذقاننا؛ وكنا نفتقد الشمس التي طالما تفادينا سطوة حرارتها؛ لفترات طويلة، ولذلك فقدت بشرتنا صبغة الملامين التي أضفت مسحة من الشحوب على وجوهنا، وعندما كنا نطالب الحرس بإخراجنا على الأقل لمدة ساعة واحدة كل يوم لنتعرض لأشعتها؛ نجابه بالرفض؛ فأكثر ما يخشاه الجندي هو أن يفر منه السجين.

مضت الأيام بخطى متئدة، توطدت خلالها علاقتي بأثير الذي سألته ذات مرة ممازحاً:

* ألم يجد جدك اسماً غير إسرائيل ليطلقه على أبيك؟

فتبسم وسألني:

* أتعرف من هو إسرائيل؟
* أعرف! إنه النبي يعقوب.
* ويعني عبد الله حسب الرواية الإسلامية، فـ (أيل) معناها باللغة الآشورية الإله، ومن هنا أتى اسم أربيل ومعناها الآلهة الأربعة، وبابل ومعناها بوابة الإله؛ عندما ولد أبي لم تكن دولة إسرائيل قد أقيمت بعد، ولم تكن ثمة حساسية حيال التسمية؛ التي أضحت سبة حالياً.

ضحكت وقلت له:

* يا للغرابة؛ لم يكن نبي الله يعقوب لوحده في هذه المحنة، فنبي الله لوط، صار عنوانا لكل مأبون.

صمتَ أثير وقُطع حوارنا؛ وبدا وكأنه يخوض في لجة تفكيره، فكسرت جمود الصمت:

* أتعلم أن أسماء الذكور في عائلتي جاءت على أسماء الأنبياء؛ جدي اسمه محمد وأبي إبراهيم وعمي يوسف، وأخي موسى، وأنا عيسى على اسم نبيكم؛ حتى اختي اسمها مريم.
* التسمية الأصلية للمسيح هي يشوع مأخوذة من الآرامية؛ اللغة التي تحدث بها المسيح؛ وهي من مقطعين يهوه ومعناها الله، وشوع ومعناها يخلص أو ينقذ، ولأن اليونانيين يلفظون حرف الشين سينا، لذا تحول الاسم إلى إيسوس، ومنه إلى عيسى باللغة العربية.

شرد فكره ثانية، ثم سألني:

* أتعرف لماذا أنا هنا؟
* لأنك تشاجرت مع نائب ضابط وكسرت إبهامه!
* والسبب! أتعرفه؟
* كلا!
* ذلك نائب الضابط في قلم الوحدة دعاني ذلك اليوم لأعينه على كتابة بعض الكنى للجنود، مقابل أن يتوسط لي عند الضابط للحصول على إجازة؛ فأبديت فرحي بالموضوع وتبعته إلى غرفة القلم؛ وهناك راودني عن نفسي، كنت مشدوها وأنا أسمع كلماته متغزلاً بي؛ ولكن عندما مد يده ليلمس وجنتي، أمسكت إبهامه وهرسته، فلم يدر بخلد ذلك نائب الضابط أن الذي أمامه هو بطل في الفنون القتالية، ولو لم يسمع الجنود صراخه وهرعوا إليه وشاهدوا الموقف؛ لبلع تعرضه للإصابة تلك، فاضطر لاختلاق عذر آخر، وأنا بدوري أحجمت على طرق سيرة ما حدث؛ ولا أعرف لماذا أفشيت لك السر وحدك دون البقية.
* القلوب سواجي.

لم يفهم المثل الجنوبي الذي ضربته له فهو بغدادي قح، فقلت:

* سواجي بلهجتنا تعني سواقي، أي أن ثمة ساقية تربط بين القلوب بالمودة والاحترام، وكما قال الشاعر أبو العتاهية "يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه – والقلب على القلب دليل حين يلقاه".
* صدقت.

تساقطت الأيام من سجلات أعمارنا كتساقط الورق من الشجر عندما يداهمه فصل الخريف، أيامنا تشابهت علينا، نهدرها بين جدران أربعة، برتابة متوقدة، مذعنين لسطوة الوقت الذي يمر متمهلاً ويغلف أرواحنا بحزن، لا شيء يطفئه غير الهروب إلى مضاجعنا أو تزجيتها بالحكايات والذكريات المستيقظة في مخيلتنا؛ أخبرني أثير عن أهله الذين هاجر نصفهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، أما الباقون فينوون الالتحاق بهم حالما يتسرح هو من الجيش؛ حدثني عن ديترويت التي فضلت أخواته الإقامة فيها، وتحديداً في منطقة نيو تلكيف، التي أسموها على مدينة تلكيف في محافظة نينوى لأن أقارب آخرين سبقوهم إليها، وأنها تضم أكبر تجمع للعراقيين في الولايات المتحدة الأمريكية، حكى لي أن آخرين من أقربائه يعيشون في الشتات، من أستراليا إلى كندا مروراً بأوروبا.

تأتي أمه لزيارته جالبة معها أصنافاً من الطعام أعدته بنفسها، لم أذق مثلها منذ زمن بعيد، كانت في عقدها الخامس من العمر والذي لم يسلب من جمالها ووسامتها الكثير، على خلاف أمي التي تماثلها بالسن تقريباً، إلا أن نائبات الزمن جعلت أمي تبدو أكبر منها بأعوام عديدة؛ وهي كبقية الأمهات لم تتنازل عن ابنها تحت أي ظرف من الظروف؛ قلت له عندما رايتها أول مرة ممازحاً:

* هاجر يا أثير بأسرع ما يمكن؛ ما الذي يجبرك على البقاء هنا، فحتى سحنتكم لا تتواءم إلا مع الغرب، دع العراق لنا نحن أولاد الملحة.

فضحك ملء فمه وقال:

* نحن أبناء هذه الأرض، سكناها قبلكم؛ ولكن قدرنا أن يحكمنا ابن العوجة.
* كيف حسبت أنكم سكنتم هذه الأرض قبلنا؟
* العراق كان موطناً للآشوريين والبابليين لقرون عديدة قبل مجيء العرب خلال الفتوحات الإسلامية، ونحن أحفادهم.
* ولكن لا تنس أننا من نسل إبراهيم الخليل الذي عاش على هذه الأرض منذ أربعة آلاف سنة، قبل أن يهاجر إلى فلسطين.

ندت عنه ابتسامة شفيفة، وقال:

* لعل الأوضاع المادية المتردية هي التي دفعت إبراهيم للهجرة وترك هذا البلد، شيء مشابهة لما يجري اليوم.
* أظنه الفقر وضنك العيش؛ ثمة قول للإمام عليّ :(الفقر في الوطن غربة).

مع الوقت استهلكنا حكاياتنا، والوافدون الجدد كانوا يرفدون مسامعنا وفضولنا بقصص جديدة، ويتصادف أن بعضهم من مدينتي، فنتحدث عن أناسها وشوارعها وأحداث أضحت علامة فارقة في ذاكرتها.

بعد أربعة أشهر على سجني، كان ما تبقى لأثير أسبوعين ليفرج عنه، وكنت سعيداً لأجله مع أني سأفقد رفيقاً حسن الأخلاق؛ أما هو فكان يردد:

* كل المدة السابقة في كفة، والأيام المتبقية في كفة أخرى؛ أحس بها ثقيلة جداً.
* ستمضي حالها حال الأخرى، وستصبح مجرد ذكرى باهتة مع مرور الزمن.

كان مواظباً طيلة المدة الماضية على أداء تمارين الفنون القتالية فيقوم بتسديد ضربات إلى الجدار بقبضة يده أو رجله، في العادة يتمرن على دفعتين؛ لكل دفعة نصف ساعة؛ كنت مبهوراً بقوته البالغة التي يستطيع بها تحطيم حجر بضربة واحدة، فسألته:

* كيف تتمكن من ذلك؟ وكأن يدك مطرقة من حديد وليست من لحم وعظم!
* هذه القوة أتت بالتمرين والتركيز، أول تمرين تلقيته في حياتي من المدرب وكنت حينها في الخامسة من عمري، هو أن أفرك قبضة يدي برمل موضوع في إناء، كما تفعل النساء عندما تعجن الدقيق؛ اهترأ جلد قبضتي وسال الدم والمدرب يأمرني أن أواصل، ولم تشفع لي توسلاتي ودموعي عنده؛ أما التركيز فأنت بالتأكيد تعرفه، وأبسط مثال عليه هو العدسة المحدبة التي تستطيع تركيز أشعة الشمس في بؤرة صغيرة تؤدي إلى احتراق السطح المعرض للحرارة.
* وما الذي دفع والدك لأن يسجلك في النادي وأنت في تلك السن؟
* عانى والدي في صغره من التنمر، ولم يردني أن أواجه ذات المشكلات التي مر بها، الشعور بالقوة والتفوق منحتني ثقة عالية بالنفس وجعلني في واقع الأمر أتجنب الخوض في صرعات ومعارك وأتجاوز حتى من يتنمر عليَّ؛ إن لم يكن يعرف أني بطل في الفنون القتالية، وأن بوسعي طرحه أرضاً بضربة واحدة؛ أعامله كما يعامل شخص ناضج؛ طفلاً غاضباً عمره أقل من خمس سنوات ويحاول ضربه؛ فردة الفعل الطبيعية هي أن أجابهه بمسك قبضته ومنعه من استخدامها ضدي، أما أن تعامله مثل الكبار وتسدد له لكمة على وجهه، فذلك تصرف ينم على خلل نفسي.
* أنا حيث أسكن، لربما لا أحد يعرف كيف يسدد لكمة للآخر، لأن الأيسر عليهم، أن يشهروا أسلحتهم الرشاشة في وجه بعضهم بعضاً.

مع اقتراب موعد إطلاق سراحه، لاحظت تغيراً في سلوك أثير؛ فقد أصبح ساهماً، قليل الكلام، ويمضي وقتاً طويلاً في التمرين ولا يتوقف إلا بعد أن تغدو ملابسه منقوعة تماماً بعرقه، فيغتسل ثم يخلد للنوم؛ في ساعة متأخرة من الليل، فززت على صوت تأوهه؛ التفت إليه وسألته:

* ما بك؟
* بطني أحس وكأن مباضع تمزقها.

فقمت وتوجهت إلى الباب وناديت على الحرس، فلم يرد عليَّ، فكررت النداء رافعاً صوتي، حينذاك سمعت وقع أقدامه تشق طريقها خلال العتمة التي تلف الأرجاء؛ سألني بتململ:

* ما الأمر؟
* أثير بطنه يوجعه.
* وما عساي أن أفعل له، ثم أن واجبي سينتهي بعد نصف ساعة، تحدث مع الحرس الذي سيعقبني.

بعد نصف ساعة ناديت الحرس التالي، وكان أثير يتلوى من الألم وقلت له:

* يا أخي والله العظيم حرام، أثير حالته صعبة جداً، ولا شيء يدعوك للقلق من هروبه؛ فلم يتبق على إطلاق سراحه سوى أسبوع واحد.

ذهب الحرس إلى الضابط الخفر، ثم عاد ليخبرني أنه رفض نقله إلى المستشفى وقال:

* الصباح رباح، لينتظر.

أسقط في يدي ولم أعرف ما الذي يمكنني فعله له لأخفف من ألمه؛ كان يتلوى كسمكة أخرجت من الماء؛ طلب مني أن آتيه بحزامه، فأخذه وعقده على بطنه بقوة حتى ظننت أنه سيشطرها؛ هدأ بعدها، فحمدت الله وعاودت وبقية الجنود النوم ومع صوت الأذان صحوت لأصلي فتفحصته؛ وبدا لي نائماً، فلم أشأ أن أوقظه؛ ومع ارتقاء الشمس عرش السماء؛ عدت لأتفحص أثير فتفاجأت بأن جسمه ساكن؛ وضعت كفي قرب أنفه فلم أشعر بأثر لتنفسه، فصرخت متوجعاً:

* مات أثير!

مات مثل طائر غريب، قاده حظه العاثر إلى القفص.

**-9-**

صبيحة الثاني عشر من كانون الأول عام 1996، أنهيت مدة الحكم؛ فتح الحرس باب السجن وساقوني إلى آمر المركز الذي سلمني نموذج إجازة محذراً إياي من تكرار الهروب، وقال مؤنباً:

* لا أحد يتوقع أن خريجاً يهرب من الجيش، في زمن انتهت فيه الحروب.
* أمرك سيدي.

أنى لهذا الضابط معرفة الظروف التي مررت بها وأنني كنت أخوض حرباً للبقاء، لي ولأسرتي، وعلى أي حال لم أشغل بالي كثيراً باستعادة الماضي الأليم، وعليَّ الآن التمتع بطعم الحرية، بعد عزلتي وانقطاعي عن العالم.

عند باب المعسكر تجمعت عدة سيارات أجرة فركبت إحداها، وكانت وجهتها إلى مرأب المحافظات، فتفاجأت بأن أجور النقل ارتفعت كثيراً عما كانت عليه قبل حبسي، والنقود التي بحوزتي لا تسد أجرة العودة إلى مدينة العمارة؛ وكان عليّ التصرف، فليس بوارد أن أستجدي مثلما يفعل بعض الجنود، فكرامتي تمنعني من ذلك؛ ولأن نقودي تغطي أجرة السيارات الذاهبة إلى بغداد؛ عندها فكرت التوجه إلى بغداد وأن أقصد بيت المرحوم حسين ابن عم والدي الذي اعتليت ظهره أثناء الصلاة عندما كنت طفلاً صغيراً؛ كان بيتهم في حي جميلة، وتربطني بابنه ثامر، علاقة قوية وتزاور.

ركبت حافلة صغيرة نوع كوستر أوصلتني إلى مرأب العلاوي في بغداد، ثم سيارة نقل عام أخرى أوصلتني إلى مرأب باب المعظم، دفعت لسائقها آخر دينار تبقى في جيبي، وتكفلت ساقاي بما تبقى من الطريق وهي خمس كيلومترات إلى حي جميلة شرقي القناة.

بعد ساعة كنت أقف على عتبة باب ابن عمي الذي رحب بي، واعتذر مني لأن انشغاله لم يتح له فرصة زيارتي في سجن المركز، ثم قال:

* قبل أسبوعين كنت في العمارة لتأدية واجب العزاء على روح قريبنا الحاج كاظم وهناك التقيت بموسى، وزرت بيت عمي يوسف
* الحاج كاظم توفي!
* الله يرحمه، رجل كبير في السن؛ من المؤسف أن الدنيا شغلتنا وما عدنا نلتقي إلا في المناسبات.

ندت عنه ابتسامة وضرب بكفه على فخذي وأردف قائلاً:

* دعنا من الأموات، أنا مدين لك باعتذار لأني لم أزرك، وسأعوضك عنها الليلة بجولة في بغداد.
* لست بصدد المبيت في بغداد، فأنا مشتاق لأهلي.

لم أستطع ثنيه عن عزمه بأن يروّح عني، فخرجنا ذلك المساء بعد أن أعارني ملابساً شتائية من عنده؛ لأن الجو كان بارداً وملابسي كانت رثة، أخذني إلى شارع فلسطين لنتعشى في مطعم الساعي، وبعدها قمنا بجولة عبر أحياء الكرادة والمنصور؛ السير عبر شوارع بغداد له طعم مميز، طعم نادر بنكهات متعددة لا تجده في مدن أخرى، ثقافات تنوعت وتلاقحت، هنا تجد شيئاً من كل شيء؛ بغداد جميلة حتى بصخبها؛ معززة بجموح آسر؛ كنت سعيداً بالحفاوة التي خصني بها ثامر، ورحت أرصد الأضواء وحركة الناس المتأنقين في تلك المناطق المترفة التي زرناها وكأني شخص قادم من عالم آخر؛ كنت منتشياً ومحلقاً في تلك الأجواء عندما أعادتني إلى الواقع أصوات إطلاقات غزيرة من سلاح آلي عندما كنا قريبين من مرطبات الرواد في المنصور، قال ثامر مفزوعاً:

* يا ساتر شنو شصار؟

حدسي المتوثب الذي تنامى في داخلي؛ أنبأني أن شيئاً خطيراً حدث؛ فقلت لثامر:

* دعنا نرجع إلى البيت.

في طريق عودتنا تفاجأنا بأن الشوارع كانت مشحونة بحواجز أمنية متعددة لا يكاد شارع واحد يخلوا منها؛ كانوا يدققون ويتفحصون الهويات، والوضع ينبئ بأن خطباً كبيراً قد وقع، عرفناه لاحقاً عن طريق إذاعة بيان ناطق رسمي على شاشة التلفاز، بأن عدي صدام حسين أصيب إثر محاولة اغتيال؛ سرح خيالي بعيداً وأنا أسمع ذلك الخبر، كم تمنيت أن أحظى بفرصة مثل تلك لأوقع القصاص بحق موات؛ لكن فكرة الأخذ بالثأر والانتصاف لنفسي منه، سرعان ما تلاشت ولم تعد تراودني، أمام الحقيقة المؤلمة وهي أن مقابل الانتقام، يتوجب دفع أثمانٍ باهظة، لأن مواتاً ليس مجرد شخص حقير مستبد، تنامت روحه بغرائز مظلمة، بل هو منظومة تحكم قبضتها على رقابنا وتتلاعب بنا كما لو كنا دمى مسلوبة الإرادة والقوة، الحصافة تتطلب مني أن أواري رغبة الانتقام خلف جبال الصمت، وأترك عدالة السماء تنتصف لي.

قطع ثامر خيالاتي الجامحة، عندما علق على الخبر:

* ليتهم قتلوه ليحرقوا قلب صدام مثلما حرق قلوب الكثير من الأمهات والآباء.
* عدالة الله قائمة، ولا بد للظالم من يوم.
* المتهتك عدي كان يتجول في المنصور بسيارة من نوع بورش، بينما أغلب الشعب لا يجد قوت يومه.
* يخدعونا بأكاذيب مثل فقدان عائلة الرئيس لبطاقته التموينية.
* ليس خداعاً، يعرفون جيداً أننا لا نُخدع بأكاذيبهم، بل يرغموننا على تقبلها كنوع من الإذلال.

كنت متفاجئاً من شكوى ثامر من النظام وهو رجل ميسور الحال، فما عسانا أن نقول؛ نحن الذين وقعنا في الدرك الأسفل من الفقر؟

كان ثامر رجل أعمال ناجح، تلقى خسارات موجعة بسبب تخبط قرارات الدولة، بيد أنه تمكن من تخطيها؛ عندما رجعنا إلى البيت، أثار فضولي وجود مجموعة من علب الورق المقوى مصفوفة في الفناء الخارجي، فسألته عنها، فقال:

* كنت أمتلك مصنعاً لإنتاج حلوى التوفي، كانت جودتها عالية وطعمها لا يقاوم وراجت علامتها في السوق، رواجاً كبيراً ودرَّ عليَّ أرباحاً كبيرة، لغاية صدور قرار غبي من الدولة يحضرُ فيه استخدام السكر في المنتوجات الغذائية والمشروبات الغازية والعصائر. بوسعك تقبل فكرة أن تشرب عصيراً من غير سكر؛ ولكنك لن تتخيل أن تنتج حلوى من دون سكر، فالسكر يمثل نسبة كبيرة من قوام الحلوى، وذلك القوام لا يمكن الحصول عليه من دون سكر، فتوقفنا مرغمين، وبعدها بعته بثمن بخس؛ وهذه العلب تحتوي على أغلفة الحلوى.

في صبيحة اليوم التالي، توجب عليَّ المغادرة إلى بيتنا، وكنت محرجاً من طلب المال من ثامر؛ ولكن لحسن حظي بادر هو بذلك؛ وأصر على إيصالي إلى مرأب السيارات بسيارته، وقبل خروجنا جذبني منظر العلب مرة أخرى، فسألته:

* ما الذي ستفعله بكل تلك العلب؟
* لا أعرف لربما سأحرقها في أقرب فرصة.

تذكرت أن أمي كانت تعد لنا حلوى التوفي في زمن الخير، متبعة الخطوات المدونة في كتاب لتعلم فنون الطهي، وكان أبي يقول لها أنها ألذ وأطعم من حلوى ماكنتوش؛ فخطرت ببالي أن أطلب من ثامر إحدى العلب، وأدع أمي تعد لنا الحلوى لأفرقها بمناسبة ليلة النصف من شعبان التي ستحل بعد أسبوعين:

* أيمكنني أخذ إحدى تلك العلب؟
* خذها كلها إن شئت.
* تكفيني علبة واحدة.

عصر ذلك اليوم، وصلت بيتنا وتلقتني أمي بأحضانها ودموع الفرح، وضمني أخي موسى وأختي مريم بعناق حار، وأتت بتول ابنة عمي وبين ذراعيها أصغر برعم في أسرتنا الذي تفتح في غيابي، ابن موسى؛ ضممته إلى صدري وأنا أجول ببصري في أرجاء البيت الذي بدا مقفراً، وغمرتني موجة من الحزن، لم تخفَ على أمي، فقالت لتخفف عني:

* فداكم أثاث البيت، أهم شيء عندي في الدنيا أن تكونوا سالمين.

حكت لي على راتبها التقاعدي الذي لم يكن كافياً لمجرد تغطية أجور التنقل لتتمكن من زيارتي، فضلاً عن تدبر أمور المعيشة الأخرى؛ فكانت مضطرة لبيع أي شيء متاح في البيت، باعت الأثاث والأجهزة الكهربائية، حتى البطانيات التي يتدثرون بها باعتها، واستخدموا البسط وأفرشة الأرض ليتقوا بها البرد، فبكيت بحرقة شخص فقد عزيزاً على قلبه، فقد ضاع كل تعبي وما جنيته من الورشة؛ وأني أهدرت سنيناً من عمري سدى، قالت لي لتخفف عني؛ الحكمة الأثيرة لدى عائلتنا، التي لها ما للسحر من تأثير:

* دوام الحال من المحال.

نمت تلك اللية وعلى جانبيَّ رقدت أمي ومريم، وفي ساعة مبكرة من الصباح، استيقظت عندما سلطت الشمس على وجهي حزمة من شعاعها تسلل عبر الشباك الذي تعرى من ستارته، بعد أن حولته ماكنة خياطة أمي إلى دشداشة لمريم؛ ذكرتني بمشهد مماثل قامت به بطلة رواية ذهب مع الريح سكارليت أوهارا.  
أعدت أمي لي الفطور على موقد نفطي صغير، لأن طباخ الغاز طالته يد البيع مع القناني؛ كان الفطور بيضة مقلية مع رغيف خبز أسمر وكأساً من الشاي، جالستني أمي، ولاحظت أنها اكتفت بتناول الخبز مع الشاي فقط؛ قلت لها:

* شاركيني يا أمي! فيك البركة.

ندت على شفتيها ابتسامة شفيفة:

* تعودنا أن نتناول البيض مرة واحدة في الأسبوع، بيضة واحدة أتقاسمها أنا ومريم وأخرى، لموسى وبتول؛ أما بقية الأسبوع ففطورنا نصف رغيف خبز مع الشاي، دخلنا لا يسمح لنا بأكثر من ذلك، ونحن مضطرون للتقشف، إلى أن يفرجها الله علينا.

من أين تستمد هذه المرأة قوتها وصبرها لتناوئ بهما هذا الزمن الشحيح، دون تظلّم أو تبرّم؟ شهدت وقائع جائرة؛ أفول مجد أبي، وأسره، ورحيله المبكر، وسجني، وهذا القحط المزمن بجلد كبير؛ ولا بد أني أخذت من طباعها الكثير؛ هربتُ من الجيش وجنبت أهلي غائلة الجوع، ونجحت في ذلك طيلة ثلاث سنوات، لو لا ذلك اللعين موات، الذي بسببه عدنا إلى خط الفقر من جديد.

أمام هذا الوضع البائس؛ توجب عليَّ التفكير منذ تلك اللحظة، لتدبر عمل أجني منه أجرة عودتي إلى المركز، فقصدت صديقي علي الذي يعمل في مجال هدم البيوت.

**-10-**

**صديقي علي عبد السادة مانع**

كنت في الرابعة عشرة من عمري عندما أعدموا أبي أمام عيني؛ تلك اللحظة الفارقة كانت تداهمني كلما طرق الحديث عنه؛ منظره وهو معصوب العينين، وحافي القدمين، مكبل اليدين إلى الخلف حول عمود نصب لغرض الإعدام؛ فيتراءى لي أنه عاش حياته كلها، ومات على تلك الهيئة.

كان أجدادي يسكنون في قرية المقاصد القابعة عند تخوم هور (الصيكل)، وفي أحد الأيام ومع بزوغ ضياء الفجر، ركب الأستاذ علي الزورق الذي رسا على حافة اليابسة القريبة من مدرسته - المـقاصد الريفية- بعد أن حلَّت العطلة الصيفية وأنهى جميع مهامه، فمن واجبه كمدير أن يكون آخر المنسحبين من المدرسة؛ نقل الفرّاش إلى الزورق، كل أغراضه الشخصية؛ وحمولة أخرى سيصحبها معه هذه المرة؛ كان ذلك هو أبي عبد السادة مانع؛ الفتى ذا الوجه الحنطي الذي لوحته الشمس، والعينين الواسعتين والابتسامة الوادعة، الذي يعاني من سعال شديد مصحوبة بحمى؛ ولأن جدي فلاح يعيش في فقر مدقع؛ تكفل المدير يساري الهوى؛ باصطحابه معه وعرضه على الأطباء في مدينة العمارة.

دار محرك الزورق مطلقاً هديراً، وانطلق بهم؛ فارقاً بمقدمته مياه الهور إلى خطين مترجرجين غير متوازيين؛ يتلاشيان بعد حين؛ ومع بلوغه قلب الهور أخذت الشمس تلفع رقبته، والرطوبة تغزو رئتيه، إلا أن منظر أسراب الطيور المتنوعة التي أفزعها هدير المحرك وجعلها تنفر من موائلها بين أعواد القصب والبردي النابتة وسط الهور؛ كان لا يدانيه أي منظر آخر؛ منظر يروي ملحمة الماء والطين والخضرة منذ سومر إلى اليوم.

بعد ساعتين كانوا قد دخلوا نهر المجر الكبير عند مصبه مع الهور ومروا بطريقهم على عدة قرى وأسلاف تنتشر على ضفتيه، لم يرَ فيها أبي أي اختلاف عن بيئته التي أمضى فيها عمره المقدر بعشر سنوات، ذات بيوت القصب، ونفس الصبية بثيابهم المخططة التي بهت لونها، وكلاب تنابح الغرباء؛ وذات رائحة شلب العنبر الزكية؛ ولكن مع تقدم الزورق حثيثاً نحو مدينة المجر؛ أخذ المشهد يتغير عليه شيئاً فشيئاً، فلأول مرة يرى ماكنة طحن ويسمع ضجيجها، وكذلك بيوتاً مبنية بالآجر، ومع رسو الزورق عند شريعة جاسم فليح؛ رأى نفسه في عالم آخر تماماً؛ مشى أبي بخطوات خجولة ومترددة بقدمين حافيتين يتبع خطوات المدير الذي قصد السوق واشترى له نعالاً، قبل أن يتابعا رحلتهما إلى مدينة العمارة بسيارة الشوفرليت.

كان منكفئاً على نفسه من الخجل ومنبهراً بكل ما تقع عليه عيناه؛ فهنا تدار الحياة بوتيرة غير التي عهدها؛ فعندما أراد تلبية نداء الطبيعة؛ توجه إلى حديقة البيت الذي تطوق جوانبه الأربعة؛ أشجار النخيل والآس، دائمة الخضرة وورد الجوري بألوانه الزاهية؛ رفع دشداشته التي لا يرتدي تحتها أي شيء وكاد ان يفعلها كما تعود طيلة عمره؛ عندما نادت عليه زوجة المدير، وأرشدته إلى المرحاض؛ وعندما أخذه المدير عصر ذلك اليوم إلى الطبيب غدا شخصاً آخر، فقد ارتدى قميصاً وبنطلوناً تحتهما ملابس داخلية، وينتعل حذاء يشاكس أصابع قدميه، يحيط به صخب المدينة المعبر عن الحياة بكل تفاصيلها؛ ومنذ تلك اللحظة عشقت روحه حياة المدينة وتعلق بها؛ تشافى أبي من مرض ذات الرئة، وعاد إلى أهله وسيرته الأولى؛ وتزوج وهو في سن السابعة عشرة وهكذا أتيت إلى الدنيا؛ لكن حلمه بحياة المدينة لم يفارق مخيلته، فارتحل مع أمي إلى مدينة المجر الكبير وعمل أجيراً في بناء المساكن، ولما أتقن حرفة البناء، وصار من (الخلفات) المهمين؛ لم يدرك أبي أن حياة المدينة التي انبهر بها، تحمل في طياتها كل النقائض؛ الفرح في قبالة الحزن، الرفاهية وشظف العيش، الجمال والقبح، الطيبة والخبث، وأن للمدينة قوانين أخرى غير تلك التي تسري في الأهوار، ترك الفالة ليتأبط بندقية الكلاشينكوف عندما توجب عليه خدمة العلم التي نقلته إلى عالم آخر جديد؛ إلى جبال كردستان وأوديتها؛ إلى ثلوجها وحر حروبها مع الأكراد؛ نجا من معارك كلي علي بيك التي فتكت بالجنود، ومعارك بمسميات أخرى، وعندما أطفأت اتفاقية الجزائر نار التمرد، سُرح من الجيش وعاد إلى أسرته الآخذة بالتنامي مع الأعوام؛ فعشنا أياماً هانئة، وانتقلنا إلى بيتنا الجديد الذي بناه بنفسه؛ ولكنه وبعد خمسة أعوام كان على موعد مع حرب أشد وأقسى، واستدعي لخدمة الاحتياط التي أمضاها عند الخطوط الأمامية للقتال؛ كان الجميع يظن أن الحرب لن تتعدى شهراً أو شهرين؛ لكن الحرب استمرت تحصد الرجال، من دون أفق لنهايتها؛ لم يتحمل أبي أن تنقلب حياته رأساً على عقب؛ أن يستبدل بيته الذي شقى لبنائه؛ بملجأ محفور في الأرض؛ وبدل أحضان زوجته وأولاده، يحتضن البندقية والموت؛ وأن يمضي في الجبهة شهراً أو اثنين؛ ويقصد أهله بإجازة لا تزيد عن ثمانية أيام؛ ومع بلوغ الحرب عامها الثالث؛ عزم أمره على الهروب، كانت مجازفة كبيرة، وعقوبتها الإعدام، وكانت أمي مرعوبة لذلك القرار، وسألته:

* ألا تخشى الإعدام إن أمسكوك؟
* حينها سأموت مرة واحدة، أما على الجبهة؛ فإني أموت كل يوم ألف مرة.

ومثلما يدفع الجوع؛ الأرنب البري للخروج من جحره، رغم خطر الثعالب المتربصة للانقضاض عليه؛ فقد توجب على أبي الخروج للعمل من أجل رزقه ورزق عياله؛ وحتى يكون في مأمن؛ زور له أحد المتخصصين في ذلك المجال دفتر خدمته على أنه معفي من الخدمة العسكرية من قبل لجنة طبية عسكرية؛ كان التزوير متقناً، والأختام المزورة تشبه الأصلية تماماً؛ ونجحت الخطة لعامين كاملين؛ كان أبي يتخطى مفارز التفيش فيها بكل ثقة؛ مادام دفتر الخدمة في جيبه؛ وذات يوم أوقفته مفرزة على رأسها نقيب في الجيش، وراح ذلك النقيب يقلب أوراق دفتر الخدمة كما هو معهود؛ وفجأة أمر الانضباط باعتقال أبي؛ وقال بنبرة متهكمة:

* دفترك مزور؛ أتريد أن تعرف كيف اكتشفت ذلك رغم كل الأختام التي بدت مطابقة للأصل؟ اكتشفته من تاريخ صدور القرار؛ فهو مطابق ليوم زواجي، وبالمناسبة إنه يصادف .... يصادف عطلة رسمية.

ذلك اليوم أعدموه أمام أنظاري في الملعب؛ كانت عيناي تذرفان الدموع وغص فمي بالكلام وعندما صرخت: (بوية)؛ ضاعت صرختي مع لعلعة الرصاص التي أطلقتها فرقة الإعدام؛ رحل أبي، ورحلت معه أمانيه بأن أكمل دراستي، بعدما أصبحت مسؤولاً عن إعالة أمي وأخوتي الصغار؛ تركت المدرسة وعملت في البناء على غرار أبي؛ وعندما بلغت السابعة عشرة؛ صرت (خلفة) مثله تماماً؛ ولحسن حظي أنني عندما استدعيت لأداء الخدمة العسكرية؛ كانت الحرب مع إيران قد انتهت، ولم أذهب إلى الكويت عندما غزاها النظام؛ لأن آمر وحدتي كلفني ببناء دار له؛ وبالطبع تكفل غيري بتوفير مواد البناء؛ مقابل عدم ذهابهم إلى الكويت.

أنهيت خدمتي العسكرية، وعدت إلى مهنتي الأولى؛ إلا أن الحصار أخذ يأكل من جرف الاقتصاد ويرهق الناس؛ وما عاد أحد يفكر بالبناء إلا الميسورين من التجار، وكذلك السراق والمرتشين من الموظفين؛ ومع تفاقم الأزمة المادية؛ أضحى هدم البيوت أكثر روجاً من البناء؛ وأجبرت العديد من الأسر للتخلي عن بعض الغرف في بيوتها وبيع الأنقاض التي يعاد تدويرها؛ زاولت مهنتي الجديدة ويعينني عليها أخوتي؛ نتكسب منها قوت عائلتنا؛ أعمل يوماً؛ وأيام أخر أبقى فيها عاطلاً؛ لغاية ذلك اليوم المشؤوم؛ عندما أتاني رجل ينوي هدم بيته الذي كان قيد الإنشاء، فذهبت معه ووقفت على البيت الذي كان في منطقة جرى توزيعها على الموظفين حديثاً، وكان قد اكتمل هيكله تماماً، فقلت له:

* من المؤسف هدمه، لماذا لا تنهي ما تبقى من عمل وتبيعه أو حتى تبيعه على حالته تلك؟

فقال، وهو يطلق حسرة:

* أنا بحاجة ملحة للمال؛ فزوجتي تعاني من الفشل الكلوي، وأنوي إجراء عملية زراعة كلية لها، ثم أني لن أهدمه كلياً؛ بل أستخرج الأبواب والشبابيك وحديد السقف فقط.

هيج كلامه عواطفي؛ فأنا أعرف ما تعني الفاقة؛ وقلت مواسياً:

* إن شاء الله؛ يتبدل الحال قريباً وتعيد بنائه.

وقررت خفض أجرتي لأنه يمر بمحنة؛ وشرعت أولاً بهدم السقف، ثم قلعت الشبابيك، وتبقت الأبواب التي تركتها لليوم التالي بعد أن أدركني الليل.

في اليوم التالي أبكرت للعمل وكان الرجل قد أخلى الشبابيك وحديد السقف بعد مغادرتي يوم أمس، فتابعت عملي على قلع الأبواب محاولاً إحداث أقل ضرر ممكن في البناء من أجل الرجل؛ وبينما كنت منهمكاً في عملي، قدمت سيارة بيك آب يقودها الرفيق موات؛ وسألني بغضب:

* (شتسوي هنا)؟

فأخبرته عن قصة الرجل الذي استأجرني، فهز رأسه وغادر، ثم ما لبث أن عاد ومعه دورية شرطة؛ القت القبض عليَّ؛ وحينها فقط علمت أن الهيكل يعود له؛ وإن الآخر كان نصاباً محترفاً.

لم تشفع لي يميني المغلظة، بأني مجرد أجير جرى النصب عليه؛ وطالبني بقيمة الضرر الذي ألحقته به؛ فباع أخوتي كل ما له قيمة لتسديد المبلغ لموات؛ حتى أنهم اضطروا لهدم غرفة من غرف البيت من أجل ذلك؛ عوضنا مواتاً بأكثر مما خسره؛ ورغم ذلك لم يتنازل عن الدعوة؛ وقال لي إن السجن إصلاح؛ وأمثالك بحاجة للإصلاح؛ لكيلا تفسدوا في المجتمع.

سجنتُ ستة أشهر في (أبو غريب)؛ وتمنيت بعد الذي عانيته في السجن؛ لو أني بعت إحدى كليتيَّ ودفعتها تعويضاً لموات؛ فالسجن لا يصلح لمن هم على شاكلتنا؛ كما يقول المثل: (لا تربط الجرباء قرب صحيحة خوفاً على الصحيحة تجرب)، فما الذي يتوقعه المرء؛ عندما يزج به وسط المجرمين ومدمني المخدرات؛ أودعوني في الردهة رقم اثنتي عشرة في قسم الأحكام الخفيفة المخصصة للمحكومين من عشر سنوات فما دون ذلك، والتي تضم قرابة ألف نزيل؛ كان من الضروري للوافد الجديد أن ينضم إلى إحدى تكتلات المحكومين من نفس المحافظة التي ينتمي إليها ليكون بمنأى من اعتداء المجموعات الأخرى؛ وهذا يعني أن تهب للعراك نصرة لأي فرد من المجموعة التي تنتمي لها؛ إذا ما تعرض للاعتداء، والتي كثيراً ما تحدث بسبب تعاطي المخدرات، أو بسبب خلافات حول حقوق تجارة المواد المخدرة، صراعات تفضي في بعض الأحيان إلى الموت أو جراح بليغة، كانت المخدرات والأسلحة البيضاء بأنواعها، متوافرة دائماً بتواطئ مع الحراس؛ كان رأس المجموعة يدعى (ستار أبو ذيبة)، في الثلاثين من عمره؛ مدان لقتله أخوين كانا صديقين له، في شجار تافه؛ وقتها كان منتشياً بالمخدرات؛ حكموا عليه بعشرين سنة، قضى منها عشراً؛ كان مهاب الجانب؛ حاله حال بقية رؤساء المجموعات، مع أنه لا يتمتع ببنية جسدية قوية، وسبب ذلك، لأنه لا يتوانى عن غرز سكينه في جسد أي شخص يناوئه، وهو مستعد لتحمل العقوبة بحق من يتسبب بشجار، وهي الحبس في المحاجر التي هو عبارة عن غرفة بمساحة ستة أمتار في أربعة، يحشر فيها نحو خمسين سجيناً بظروف قاسية؛ والطريف أني كدت أن أتشاجر معه، في أول يوم لي إذ لم تكن لي خبرة في أي شيء ولا أعرف من هو أبو ذيبة، حينها كنت أنتظر دوري في دخول الحمام، وإذا بشخص يتخطاني ويدخل قبلي، فثار غضبي ولا سيما أنه ضعيف البنية، ويبدو أمامي كالقزم، فمسكته من ذراعه بيدي القوية التي تعودت على هدم الخرسانة الصلبة بها، وقلت له:

* (وين رايح؟ شنو أني مو بعينك!).

وإذا بخمسة أشخاص يحيطون بي من كل جانب وبأيديهم سكاكين؛ وسألني:

* (أنت منين؟)

ولما عرف أني من محافظة ميسان وأنه أول يوم لي، تبسم وقد أعجبته شجاعتي، فهنا القوة والشراسة، تتسيدان كل الخصال الأخرى؛ فضمني إلى مجموعته.

كان كل شيء بثمن، مكان النوم، الاستحمام، السجائر، المروحة، الثلاجة، الطباخ والتلفزيون؛ وكل شخص ينال من الراحة على قدر ما يدفع؛ فيمكن للمحكوم الانتقال من الردهة ذات الألف شخص أو يزيد، إلى قاعات أصغر تسع خمسة وعشرين فرداً فقط بعيداً عن عالم الجريمة وعواقبه؛ وثمة تعداد عند الساعة السابعة صباحاً، بعده يحقق للنزلاء الخروج من القاعات إلى الباحات التي بدت وكأنها سوق كبيرة فيها مطاعم ومقاهٍ، وحوانيت يديرها السجناء أنفسهم، بالاتفاق مع الحراس طبعاً؛ كنت حريصاً على تجنب الوقوع في مشكلات وهذا هو طبعي كما عُهِدَ عني، وأيضاً لسبب وجيه آخر؛ وهو أن مدة حكمي قصيرة، قضيت منها في التوقيف في قضاء المجر قرابة الشهر وهي تحتسب من ضمن مدة الحكم، وهنالك تخفيض لربع مدة الحكم حسب القانون؛ ومع ذلك كنت مرغماً للدخول في شجار دفاعاً عن نفسي؛ مع شخص كانت بحوزته سكين؛ إلا أني أطحت به أرضاً وغرزت السكين في عضده؛ فأودعوني على إثرها المحجر شهراً كاملاً بعد أن عاقبني الحراس بالضرب المبرح.

**11-**

عدت إلى البيت متكدر النفس، بعد أن علمت أن صديقي عليّ في السجن؛ ولا أدري كيف يمكنني تدارك المأزق؛ في تلك الأثناء قطعت سلسلة أفكاري؛ تساؤلات كل من أمي ومريم وموسى وبتول بالتتابع، عن العلبة التي جلبتها معي بعد أن غلبهم الفضول حولها؛ سألوني ما الذي أنوي عمله بها، فأخبرتهم عما نذرت فعله في ليلة النصف من شعبان.

مساء ذلك اليوم، جلست أمي بقربي، وقالت:

* ما كمية الحلوى التي نذرت تفريقها؛ لكي أعدها لك؟
* كيلوغرام واحد، سيكون كافياً.

وفجأة طرأت على بالي فكرة تصنيع الحلوى وبيعها؛ فالأغلفة التي تحتويها كل علبة تكفي لخمسة وعشرين كيلوغرام، فعرضت الفكرة عليها، فردت عليَّ بعد أن قلبتها في رأسها:

* وإن فشلنا!
* لن نخسر شيئاً، إن لم نتمكن من بيعه، نتناوله نحن، وعلى أي حال سنبتدئ بإنتاج كمية قليلة جداً ثم نرى هل سنوفق أم لا؟
* حسناً إذن!

ذهبت إلى السوق واشتريت المواد التي طلبتها أمي، بما تبقى عندي من النقود التي أعطاها لي ثامر، وتحققت من سعر البيع في المحال؛ وساعدتها مريم وبتول بمهمة لف قطع التوفي، وخلال ساعة أضحى مجموع ما أنتجناه قرابة كيلوغرامين، حملتها وذهبت إلى السوق، وعرضت الكمية للبيع على أحد المحال مع إتاحة هامش ربح مغرٍ له، فتلقفوها مني بسرعة، ورجعت قافلاً إلى البيت وقد جنيت ربحاً يعادل ضعف ما أنفقناه؛ ومنذ تلك اللحظة انضممت أنا وموسى أيضاً لنضاعف الإنتاج.

مع انقضاء مدة إجازتي جنيت ما يسد نفقاتي للسفر؛ ذهبت أولاً إلى بغداد، وقصدت بيت ثامر وكنت أدعو الله أنه لم يتخلص من بقية العلب، واستجاب الله دعائي، فأخذت العلب منه وأرسلتها عن طريق شركة النقليات إلى بيتنا، ثم تابعت طريقي إلى المركز.

مع بداية شهر شباط عام 1997؛ أنهيت الدورة في المركز، ولحسن حظي جرى نقلي إلى معمل الميدان 39 التابع إلى لواء 95 من الفرقة 18، ومقره في مدينة قلعة صالح التي لا تبعد عن بيتي سوى خمسة عشر كيلومتراً؛ وعندما دخلت بيتنا هذه المرة شعرت بفرق كبير عن زيارتي الماضية؛ فقد عوضت أمي بعضاً من أثاث البيت الذي فقدناه من قبل، فثمة طباخ غازي للطهي، وأفرشة جديدة للنوم؛ وتوردت وجوههم التي أضناها سوء التغذية؛ ورغم أن عملية لف التوفي كانت مرهقة، إلا أن الأرباح كانت مشجعة والطلب بازدياد يوماً بعد يوم.

منحت بطاقة سماح بالنزول اليومي لقرب وحدتي من محل سكني؛ واستمر العمل طيلة شهرين من تاريخ عودتي، ثم شارفت علب الأغلفة على النفاد، فسألتني أمي وقد بدا على وجهها هاجس:

* ما العمل؟ كيف نحصل على كمية أخرى من الأغلفة؟
* لا تشغلي بالك يا أمي، لن أدعك ترهقين نفسك بعد الآن؛ لأني أخطط للعودة إلى مهنة إصلاح الأجهزة الكهربائية، فهي مهنة تدر دخلاً جيداً.

كنت على وشك تنفيذ مشروعي؛ لو لا حدوث أمر غير متوقع قلب الأشياء رأساً على عقب؛ ففي ذلك الوقت كان قضاء المجر عرضة لنوعين من الحوادث الأول يتمثل بهجمات مسلحة يشنها أفراد المعارضة، وكانوا يستهدفون في الأغلب مقار الفرق الحزبية، أما النوع الثاني فهي عمليات السطو المسلح وقطع الطريق، وفي كلتا الحالتين كانت للهاربين من الخدمة العسكرية يد فها؛ مما استدعى إلى استنفار الجهاز الحزبي والأمني، ليشن حملات على القرى النائية والأهوار التي أنشأت فيها المعارضة قواعدها، وأطلقت يد الرفاق الحزبيين لتعقب الهاربين ومداهمة البيوت ومنحهم مكافآت عن كل هارب من الجيش يلقون القبض عليه.

وكانت لموات صولات وجولات في هذا الشأن، ليس لمجرد المال؛ بل لأنه يمني النفس بالفوز بدرجة حزبية أعلى، فكان يشن مع مجموعته اقتحامات ليلية والناس نيام؛ ولم يرع حرمة لجار أو قريب؛ وقلما فلت فار من بين يديه؛ فقد كان رجاله يطوقون البيوت ويرتقون السطوح، قبل مداهمتها.

تلك الليلة تعشينا على ضوء الفانوس بعد انقطاع التيار الكهربائي؛ وبقينا نتسامر ساعة أو يزيد؛ ثم بدأ الضوء الخافت المنبعث من ذبالة الفانوس يغرينا بالنعاس الذي أخذ يغشانا واحداً تلو الآخر؛ لا أعلم من تثاءب أولاً؛ لندخل كلنا في حلقة التثاؤب تلك؛ انسل الجميع وخلدوا للنوم، وبقيت لوحدي؛ وقرابة الساعة العاشرة هممت بدوري للنوم؛ إلا أن التيار الكهربائي عاد؛ فطار النوم من رأسي، فتحت التلفاز، فطالعني وجه الرئيس في نشرة الأخبار وهو يقوم بزياراته لمواقع مختلفة والتي تستحوذ على قنوات التلفاز الثلاثة لغاية انتهاء البث؛ فرحت أبحث عن قناة سحر التي تبث من إيران باللغة العربية، ولم أفلح؛ حينذاك حاولت إشغال نفسي بلف الحلوى بآخر ما تبقى من الأغلفة، والتي تكفي لكيلوغرام واحد، نوتْ أمي تفريقها في عيد الأضحى الذي سيطرق الأبواب قريباً، ثواباً على روح أبي عندما نزور قبره.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل؛ وأوشكت على إنهاء عملي، عندما سمعت طرقاً متلاحقاً على الباب؛ فنهضت وقد ركب الفزع قلبي؛ فلا أحد يأتي في مثل تلك الساعة؛ إلا لأمر جلل؛ سألت قبل أن أفتح الباب:

* من الطارق؟
* الحزب، افتح الباب.

تعرفت على صوت موات الغليظ الذي يبدو وكأنه خارج من حبال صوتية مرتخية؛ فتحت الباب واقتحم هو ومرافقيه المنزل بشكل فظ، ومن دون استئذان، ووجه إليَّ سؤاله مباشرة:

* ما موقفك من الخدمة العسكرية؟
* أخدم في معمل الميدان 39 التابع إلى لواء 95 من الفرقة 18.

في الآونة الأخيرة صادفتُ مواتاً مرات عديدة في القرية؛ ولا بد أن ذلك جعله مرتاباً في كوني فاراً من الجيش؛ أبرزت له بطاقة نزولي اليومي التي دقق فيها ملياً، ثم أعادها لي؛ وقبل أن يغادر، راحت عيناه تتفحصان المكان؛ حينها سألتني أمي التي كانت متوارية خلف باب غرفة النوم الموارب:

* (شيريد هذا الملعون منك؟ ما كفّاه اللي سوا بيك؟)
* لا أستبعد أن عقله المستريب والمتشكك بعائلتنا، يبحث عن خيط ما، علّه يكشف له مناهضتنا للنظام! وهذا ما دفعه لاقتحام بيتنا؛ فقد كان بوسعه أن يستوقفني في إحدى المرات التي صادفني فيها.

بعدها بيوم طرق بابنا ثلاثة رجال بزي مدني، عرَّفوا عن أنفسهم بأنهم من الأمن الاقتصادي ومعهم أمر بتفتيش البيت، كنت متفاجئاً لقدومهم، وتساءلت، ما علاقة الأمن الاقتصادي بنا؟ وسرعان ما توقف بحثهم عند علبة الحلوى، وبدا جلياً أنهم يعرفون مسبقاً عم يبحثون، قال الضابط:

* أبلغنا أنكم تنتجون الحلوى بصورة غير رسمية.

كلامه أثار قلقي؛ فرغم أن الكثير مما يباع في السوق من إنتاج منزلي ولا يخضع للمساءلة من قبل دائرة الصحة أو الأمن الاقتصادي؛ إلا أن الأمر معنا مختلف لأننا استخدمنا علامة تجارية مسجلة لدى الجهات الحكومية، مما يدخلنا في دائرة الغش الصناعي وتلك مشكلة حقيقة، غير أني كنت واثقاً من عدم وجود دليل يديننا، فهم لم يضبطونا أثناء تصنيع الحلوى ولم يعثروا إلا على علبة واحدة يمكن تبرير حيازتها، ورجحتُ أن القصد من وراء ذلك هو الابتزاز الذي لا يمكنني تقبله إطلاقاً؛ فحرصت لأبدو أمامه بمظهر شخص واثق، وقلت له:

* وأين الدليل؟
* دليلنا هذه العلبة!
* ما بها؟
* هل بحوزتكم إيصال بالشراء؟
* ومن بحاجة لإيصال شراء كيلوغرام واحد؟ ثم من قال إني اشتريتها؛ فالعلبة جاءتني هدية من ابن عمي وهو صاحب المصنع الذي ينتجها.

كنت واثقاً من قوة حجتي، إلا أنه فاجأني قائلاً:

* تفضل معنا.

أركبوني معهم في السيارة وانطلقوا إلى مركز الأمن الاقتصادي ولم ير أحد الشرطيين حرجاً من أخذ حفنة من الحلوى ويفرقها على الضابط والشرطي الآخر، بينما لذت بالصمت كي لا أزيد الموقف تعقيداً؛ وضعوني في الحجز مع أشخاص آخرين، وما لبث أن جاء موسى بعد أن أبلغته بتول بما حدث، وتحدث مع الضابط الذي لم يفصح بأكثر مما قاله لي بأن ثمة بلاغ وردهم عن وجود غش صناعي؛ ولسوء حظي كان ذلك اليوم هو الخميس؛ والدوام في المحكمة يستمر لغاية منتصف النهار فقط، ولا أعلم إن كان الضابط متعمد بتأخير عرض أوراقي على القاضي إلى ما بعد الساعة الثانية عشرة، أم كان لسبب آخر لذا بقيت في التوقيف لغاية يوم السبت، ولكني جزمت أن الأمر متعلق بتقديم رشوة، ليس إلا، وكنت مصراً على عدم السماح لهؤلاء الأوغاد بابتزازنا، أو السماح لأي مخلوق أن يعيد عائلتي إلى خط الفقر ثانية؛ فبالمال يستعبد الانسان أو تشترى حريته، السجن لن يخيفني ولن يسلب من روحي شعورها بالحرية، بقدر الفاقة التي مررنا بها؛ ثم أن علبة من الحلوى، قطعاً لن تكون دليل إدانة يعتد به.

بعد يومين قادوني إلى المحكمة، وأدخلوني غرفة قاضي التحقيق، الذي جلس على مقربة منه، كاتب مختص بتدوين الإفادة، سألني إن كنت أود توكيل محامي، فقلت محاولاً كتم ردة فعل ساخرة تملكتني، بأن لا حاجة لي بالمحامي؛ فأنا واثق من أنها مجرد زوبعة في فنجان؛ أخذ القاضي إفادتي التي بدت متماسكة للغاية، ثم أمرني بالانتظار خارجاً؛ جلست على عتبة في قبالة باب القاضي مباشرة، وكنت أتحدث مع موسى الذي أخذ إجازة من دوامه ليكون إلى جانبي؛ عندما لمحت مواتاً مقبلاً نحونا، مرتدياً الزي العسكري الزيتوني الذي لم أره يرتدي غيره، ومعلقاً شارة برونزية لصورة صدام حسين على صدره من جهة القلب، وكان معه رفيق حزبي آخر؛ ألقى عليَّ نظرة بغضاء دون أن يحيينا، ودخل على القاضي؛ حينها أدركت بما لا يقبل الشك أن الموضوع من تدبير موات، ويقينا أن عقله المستريب بقي متوقداً لغاية إدراكه ما كنت أعمله تلك الليلة؛ وهذا ما تأكدت منه لاحقاً؛ فقد أدليا بشهادتيهما التي أكدا فيها أنهما شاهداني أصنع الحلوى في البيت، وذلك كفيل بإحالتي إلى محكمة الجرائم الاقتصادية التي قد تصل أحكامها إلى خمس سنوات؛ كانت أمي منهارة وتبكي كمن مات ولدها:

* يا عيسى! حسافة أن تمضي شبابك وعمرك في السجن، الأولى من ذلك، أن تنعم بزوجة وأطفال.

كنت أغلي في داخلي؛ لكني أطلقت ضحكة لأخفف عنها، فقلت لها:

* يبدو أني صرت زبوناً للسجون.

كان لموسى صديق محامي، فاستشاره حول قضيتي، فأخبره بأن الأمور ليست في صالحي؛ فالقاضي على أغلب الظن، لا يستطيع تجاهل شهادة موات المعروف بتقاريره التي لا ينجو منها أحد؛ إلا أن حضور ثامر ليشهد بأن العلبة كانت هدية منه ولا سيما انه صاحب تلك العلامة التجارية سيكون في صالحي، فاتصل موسى بثامر وأخبره برأي المحامي:

* ما زلت مالكاً لإجازة المعمل والعلامة التجارية، غير أني تخلفت عن تجديدها بعد أن بعت المعمل، غداً سأقدم طلباً بتجديد الإجازة ودفع الرسوم؛ وهذا قطعاً سيحسم القضية.

حضر ثامر للشهادة ومعه إجازة العمل مصدقة من دائرة الصحة، وكان كل شيء يشير إلى أن الأمور على ما يرام؛ إلا أن القاضي مدد توقيفي أسبوعاً آخر لحين التأكد من صحة صدور الوثائق التي قدمها ثامر؛ ذلك القرار جعلني أشعر بالإحباط؛ كنت مثل عداء مسافات طويلة ظن أنه بلغ خط النهاية، ثم يفاجأ بأن أمامه دورة أخرى لينهي السباق؛ ولم يكن بيدي غير الصبر وتسليم الأمر لله.

**-12-**

مر الأسبوع وأحلت ثانية إلى القاضي، الذي وقفت أمامه بينما تجاهلني تماماً، بالاطّلاع على أوراق القضية التي أرفقت معها صحة الصدور، فرحت أتفرس قسمات وجهه لأستشرف ما الذي خبأه لي؛ لكن وجهه كان جامداً كوجه تمثال لا يحمل أي تعبير محدد، ثم جاءت الصدمة عندما أصدر حكمه عليّ بالسجن لمدة سنة واحدة.

أخرجني الشرطي من غرفة القاضي وعند الباب وضع الأصفاد حول معصمي، وسط ذهول أهلي الذين ينشدون معرفة الحكم، كان لساني عاجزاً عن النطق، وأناب الشرطي الإجابة عني:

* حكم عليه بالسجن سنة واحدة.

انهارت أمي وغرقت في بكاء ولوعة؛ وحضنتني بقوة وكأنها تقول لن أتخلى عن ابني لكم؛ بينما وقف موسى متخشباً كتمثال من هول الصدمة.

بعد يومين رحّلوني إلى سجن أبو غريب، وكانت نفسي قد استردت سكينتها، وصرت أردد قول الله تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)؛ فلا ينبغي أن أواجه أيامي القادمة بروح منكسرة؛ دخلنا بغداد بعد الظهر وكانت المظاهر الاحتفالية تعم أرجاء المدينة؛ مواكب من السيارات معظمها سيارات أجرة باللون الأبيض والبرتقالي تجوب الشوارع وتطلق أبواقها، وأعمدة الإنارة مزينة بصور القائد وأخرى تحمل الرقم ستين، فاليوم ولسخرية القدر تصادفت مأساتي مع عيد ميلاد القائد الضرورة بلغ الستين؛ سنٌ لم تتح الفرصة لقرابة مليون شخص قادهم في حروبه؛ ليبلغوا ثلث هذا الرقم أو نصفه؛ في ذلك الاحتفال أهدرت أطنان من الدقيق الأبيض لصنع كيك عيد الميلاد، بينما كان معظم الشعب يتحسر على رغيف خبز؛ لا يهم إن كان الرغيف أسمر، وفي ذات الوقت يغصبونهم على تمثيل دور الفرح بميلاد القائد وحناجرهم تصدح (من عمرنا على عمرك يا صدام).

أمامي ثمانية أشهر ونصف ينبغي قضاءها بأقل الخسائر، دليلي إلى تحقيق ذلك هي تجربة صديقي عليّ الذي تخطى محنته قبلي في سجن أبو غريب الذي يبعد عن بغداد بحوالي ثلاثين كيلومتراً.

محشور وتائه في محيط يضج بالخطايا والرذيلة، مع ألف نزيل أو يزيدون، في ردهة تشتمل على مجموعة من الأسرة ذات الطابقين موزعة على مسافات منتظمة عن بعضها بعضاً، تسعُ ربعَ عدد النزلاء، أما البقية فعليهم تدبر أمر نومهم بين الفسح الموجودة بين سرير وأخر؛ انضممت إلى مجموعة من أبناء محافظتي، من خمسة عشر فرداً، أربعة يشغلون الأسرة، والباقين ينامون على المساحة المتاحة على الأرض بين السريرين وأسفلهما؛ كنت أتجنب الاختلاط بالسجناء ـ عدا (السفرداش) الذين أتشاطر معهم الطعام ـ لدرء المشكلات التي تحدث لأتفه الأسباب، ومعظمها نتيجة لتعاطي الحبوب المخدرة؛ هأنذا مكدس مع خمسة عشر فرداً كبضاعة مزجاة، هم الآن أهلي وعشيرتي التي ستساندني من غير تردد في حال تعرضت لغزو من عشائر أخرى، وتتوقع مني المثل.

مع خمس عشرة حكاية مخضبة بدماء الضحايا، ومكتسية بلباس الخطيئة؛ بين شباب أقبلوا لتوهم على الحياة مثل عامر ذي العشرين عاماً، الذي قاده إلى هنا عراك بالأيدي أثناء لعبة كرة قدم مع لاعب من الفريق الخصم؛ تسببت بوفاته؛ وشيب لن يغطي ما تبقى من أعمارهم، سنوات محكوميتهم؛ مثل جواد ـأكبرنا سناًـ الذي قتل ابنته وعشيقها بدافع غسل العار؛ وآخرون كانوا أسارى لرغبات موحشة في لحظة عابرة؛ وهم الآن يهدرون سني حياتهم في هذا التيه القاهر، أيامي المهدورة من عمري، تمر من دون ملامح أو مآل، تنهشني الحسرات لأن مع إشراقة الصباح لا يطالعني وجه أمي، ولا ضوء يرشدني لمبتغاي غير ثقتي بالله التي تمنحني إطلالة من الأمل لأستنشق منها عبق الحرية المندثرة هنا، فطفقت أشغل نفسي متقرباً إلى الله بصلواتي وأدعيتي، حتى باتوا يلقبوني بالملا، ذلك اللقب الذي أطلق على جدي من قبل.

كنت أفكر في مقدار العناء الذي سيتحمله أهلي ليتدبروا لي المال اللازم لإنفاقه في السجن أو لزيارتي التي كان يسمح بها كل يوم أحد من الأسبوع؛ ستبيع أمي حتماً، كل ما عوضناه من عملنا في إنتاج الحلوى لتتمكن من زيارتي؛ لذا رجوتهم الاكتفاء بزيارة واحدة كل شهر، فامتثلوا على مضض بعد أن تكفل ثامر بزيارتي، مرة كل شهر مرة أيضاً.

زيارة أهلي كانت تمنحني الشعور بأني ما زلت على قيد الحياة، موسى زارني ثلاث مرات، بحكم انشغاله بوظيفته، الزيارة الأولى جاءت بعد أيام من سجني؛ والثانية بعد شهرين تقريباً، وفيها أخبرني أن ثامراً طلب يد مريم، وأنه يريد معرفة رأيي، فقلت له:

* أنا موافق، فثامر شاب خلوق ولن نجد أفضل منه، وهو وفى بوعده بأن يزورني مرة كل شهر، ولم يبخل عليَّ بالمال، دع مريم تتخلص من وحل الفقر الذي علقنا فيه، ولا ترهنوا مستقبلها بخروجي من السجن، فخير البر عاجله.

المجموعة المحاذية لنا كانت لمسجونين من محافظة النجف، وثمة شخص من بينهم، جذبني نحوه فرط تدينه وكثرة مناجاته لله بدعاء الاضطرار (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)، والأدعية الأخرى التي تمنحنا التشبث بالأمل والرجاء، كان وجهه غارقاً بحزنٍ ووهن، ووجنتاه نديتان بدموعه، ولما سألت عنه؛ قالوا اسمه جلال ويلقب بالمظلوم، متهم بجريمة قتل أخيه وسرقة أمواله، وهو ينفي التهمة عن نفسه نفياً قاطعاً؛ مالَ قلبي إلى جلال لما رأيته من تديّن وخلق كبيرين؛ وذات فجر وبعد أن أتممت صلاتي، سألته عن حكايته، فسردها لي والعبرة تطبق على حنجرته:

* أبي كان تاجراً كبيراً لديه شركة متخصصة باستيراد إطارات وبطاريات السيارات في النجف، تزوج من امرأتين، صغراهما كانت أمي ولي أخت شقيقة واحدة؛ أما من زوجة أبي المتوفاة، فلي ثلاثة أخوة، وكانت علاقة الأخوَّة بيننا متينة وقوية، وكان أكبر أخوتي، ملازماً لأبي في إدارة العمل في حياته، ومطّلعاً على جميع أمورها؛ ثم توفي أبي، وأزف وقت المطالبة بالإرث؛ حينذاك قال أخي الأكبر: (لماذا نهدر جهد المرحوم لسنوات من العمل المضني حتى وصل إلى ما نحن عليه الآن، بتقسيم ثروته؟ لنبقِ كل شيء على وضعه، واعتبروني في مقام أبي رحمه الله، وسأجري لكل واحد منكم معاشه كالسابق)؛ لكن الشيطان وسوس لي بأن أخي يريد أن يأكل حقي من الميراث، وبدأ الخلاف يدب بيننا، ويتعاظم يوماً بعد يوم، وذات يوم هددته بالقتل إن لم يعطني ميراثي؛ حدث ذلك أمام الملأ، وفي اليوم التالي وجِدَ أخي مقتولاً في مكتبه، وقد سرقت الأموال المحفوظة في الخزنة، وهنا اتهمني أخويَّ غير الشقيقين بأني الفاعل، ولم يصدقوا بأني بريء وأن التهديد الذي وجهته لأخي كان مجرد كلام في ساعة غضب عابر؛ ألقي عليَّ القبض وحكموني بعشرين سنة، قضيت منها عشراً، ظلماً وبهتاناً؛ والأمَرُّ والأقسى من ذلك أن عائلتي انقلبت عليَّ وتنكرت لي؛ إلا شقيقتي التي لم تصدق أني أقدمت على تلك الجريمة بحق أخينا.

كنت أرى الصدق من طريقة كلامه وتأثره الظاهر للعيان، فغيره من القتلة كانوا يتباهون بأفعالهم التي هي بطاقة لمنحهم مهابة واحترام بين السجناء، فالزعماء هنا جلهم من القتلة؛ جللني شعور بالتعاطف نحو ذلك المظلوم، وقلت في نفسي: (حقاً من رأى مصائب الناس، هانت عليه مصيبته).

قلت له مهوناً:

* سيظهر الحق حتماً وستبرأ صفحتك أمام أخويك والناس، أما عند الله فمصيبتك هي في ميزان حسناتك.

بدت عليه علامات الرضا وهو يتفرس في وجهي ليستشف من تعابيره إن كنت أجامله أم أني صدقته حقاً.

مرت عليَّ خمسة أشهر ونصف، في سجن أبو غريب، دون أية مشكلات، فقد جنبني الاحتكاك بالآخرين الوقوع فيها، كما وأني اكتسبت احتراماً بين أفراد مجموعتي لما رأوه من تديني وأخلاقي وما أحمله من شهادة جامعية، فمعظمهم لم يكن يصلي ولم يفلحوا في حياتهم الدراسية، وكنت أدعوا الله أن يتمم عليَّ الأشهر الثلاثة المتبقية، من دون حوادث تذكر، وسط هذه الغابة المليئة بوحوش لا تعرف الرحمة ولا يردعها أي وازع أخلاقي، فلم يمر علينا يوم دون أن يقتل أو يجرح فيه نزيل على يد نزيل آخر.

ولكن القدر كان له شأن آخر معي، بقصة بدت أغرب من الخيال؛ فذات يوم زُجَّ بأحد أرباب السوابق في ردهتنا، وأخ آخر له في ردهة أخرى، وكان ذلك الشخص ويدعى (أبو حية) من محافظة النجف، لذا كان من الطبيعي أن ينضمَّ إلى مجموعة من نفس محافظته، وهي التي تجاورنا؛ وكما جرت العادة مع كل وافد جديد أخذ النزلاء يسألونه عن تهمته، فذكر بأنه متهم بجريمة سطو على بيت أحد التجار؛ فبعد مراقبة البيت وتيقنهم من خروج الأسرة في شأن لهم اقتحمه هو وشقيقه وشخص ثالث، ونجحوا في الاستيلاء على الأموال والحلي العائدة لتلك الأسرة، ثم غادروا بسرعة في سيارتهم، إلا أن رب الأسرة ولسوء حظهم العاثر؛ عاد بسيارته في لحظة خروجهم دون أن يتنبهوا له، فلاحقهم لغاية وصولهم إلى نقطة تفتيش، عندها بلَّغ عنهم، ولما أدركوا أنهم سيقعون بيد الشرطة، اجتازوا نقطة التفتيش بسرعة كبيرة في محاولة يائسة للإفلات، فما كان من الشرطة إلا إطلاق النار عليهم‘ فقتل شريكهم الثالث الذي كان يقود السيارة، ومن ثم ألقي القبض عليه وعلى أخيه، وحكم عليهما بالسجن عشر سنوات.

كنت أصغي لحكاية الرجل، والتي لا غرابة فيها، فهي تتشابه مع كثير من مثيلاتها هنا، وعلى ما يبدو أن ذلك الرجل كان يدرك أن جريمته التي قادته للسجن لم تكن بذلك القدر الذي يجلب له المهابة لدى الآخرين؛ فراح يسرد بطولاته وعملياته العديدة التي نفذها من قبل، ثم يصل إلى الحكاية الفارقة التي قلبت الأوضاع معي رأساً على عقب، عندما قال:

* ذات يوم علمت أن تاجراً من تجار النجف، كان بحوزته أموالاً طائلة كان ينوي عقد صفقة لشراء إطارات وبطاريات للسيارات، فقمت بالسطو على مكتبه في ساعة مبكرة من ذلك اليوم أنا وأخي وانكببنا على فتح الخزنة الحديدية التي كانت متينة وأجهدتنا كثيراً؛ وبينما كنا منهمكين بفتحها، إذ بالتاجر يأتي إلى مكتبه مبكراً على غير عادته، ولم ننتبه إلا وهو يقف على رؤوسنا شاهراً مسدسه علينا، تخيلوا الموقف وضعوا أنفسكم في مكاننا وأنتم تنظرون إلى فوهة مسدس مصوب نحوكم، فماذا كنتم ستفعلون؟

عم الصمت على الجميع وهم متشوقين لمعرفة بقية القصة، إلا المظلوم الذي سأله:

* وكيف نفذت بجلدك منه؟
* هجمت عليه كالثور الهائج وغرزت سكيني بقلبه ثم نحرت عنقه؛ وتابعت عملي على فتح الخزنة واستوليت على ما فيها من أموال.
* متى كان ذلك؛ فأنا لم أسمع بمثل هذه الحادثة؟
* قبل عشر سنوات؛ والحادثة مشهورة جداً، وأحدثت ضجة كبيرة وقتها، وقد اتهم أخوه بها؛ وأكل(المقسوم) نيابة عنا.

ندت عن أبي حية، ابتسامة لئيمة؛ بينما قفز المظلوم وصرخ بأعلى صوته:

* الله أكبر ظهر الحق، هذا هو قاتل أخي الذي اتهمت بسببه ظلماً وبهتاناً.

غشيت جميع الحاضرين دهشة كبيرة، فلو كان غير المظلوم، لما نطق بذلك الكلام؛ بل لغرز سكينه في قلب قاتل أخيه، إلا أن مظلوماً كان من طينة أخرى، طينة طيبة ومسالمة مثلي تماماً، لأني ظلمت كذلك على يد موات مرتين، والانتقام لنفسي أوكلته إلى الله سبحانه وتعالى، ألم يقل الإمام علي: (إياك من ظلم من لا يجد غير الله ناصراً).

انسحب الرجل من المجموعة وهو يستشعر الخطر من مظلوم، وانضم إلى مجموعة أخرى في الطرف القصي من الردهة، بينما تملكت الفرحة مظلوماً الذي وجه كلامه إلى أفراد مجموعته:

* لقد سمعتم اعترافه، أستحلفكم بالله! أن تشهدوا لي أمام أهلي الذين سأبلغهم بأني عثرت على قاتل أخي؟

هنا ران الصمت على الجميع ولم يجبه أحد منهم، فالتفت بيأس نحونا ينشد المؤازرة؛ وقال:

* أخوتي أهل العمارة، أتشهدون لي أمام أهلي، بما سمعتم؟

وجُوبِه بالصمت أيضاً؛ فالكل ينأى بنفسه عن المشكلات التي قد لا تطاله هو فقط؛ بل اسرته وعشيرته؛ ثم أن المفترض -حسب قوانينهم- أن يثأر المظلوم من قاتل أخيه بنفسه؛ التفت نحوي وفي عينه تجمدت دمعة.

* وأنت يا عيسى أتشهد لي؟

كنت أعي ما جريرة إقحام نفسي بهذا الأمر الخطير؛ ولكن على المقلب الآخر سأنال سخط الله إذا ما سكت عن قول الحق، وأنا الذي تربيت على (قل الحق ولو على نفسك).

* سأشهد لك يا مظلوم.

هجم مظلوم عليَّ واحتضنني وهو في حالة هستيرية؛ أما مجموعتي فأكبرت فيَّ ذلك الشيء؛ وعدّوها شجاعة فائقة، وتعاظمت مكانتي عندهم، وقاموا وقبلوا رأسي؛ كان ذلك اليوم هو السبت، وجميع السجناء يتجهزون لزيارة عائلاتهم لهم؛ وكانت شقيقة مظلوم هي الوحيدة التي تزوره من حين لآخر منذ عشر سنوات، فطلب من أحد الحراس بعد أن دفع له مبلغاً مجزياً من المال، أن يتصل بها لتزوره ويخبرها بأنه عثر على قاتل أخيهما.

لم ينم مظلوم تلك الليلة وبقي يصلي صلاة الشكر لله، وضحى اليوم التالي؛ وبينما كان يتهيأ لمقابلة شقيقته، باغته أبو حية بطعنة اخترقت رقبته، ليخر صريعاً وهو يفحص برجليه وصوت شخيرٍ يصدر مع الدم المتدفق من رقبته؛ مات مظلوم الذي استحق لقبه بجدارة؛ ولكني أجزم أنه عاش ليلة من السعادة لربما تفوق سعادة الكون؛ سعيد لأن ثمة من يشاطره اليقين بأنه بريء من دم أخيه، وطويت صفحة مظلوم لتفتح صفحتي.

أديت صلاة الوحشة على روح مظلوم، وكنت في حالة كبيرة من الأسى عليه، وجَفَتْ نفسي الأكل ذلك اليوم، مجموعتي ومجموعة النجف شعروا بمدى حزني على مظلوم، فأخذوا يواسونني وكأن الفقيد أخي، سألتهم:

* لماذا أقدم على قتله؟ ألم يكتفِ بقتل أخيه ورميه في السجن لأكثر من عشر سنوات!
* إنه مجرم متمرس وله دراية بالقانون؛ لقد حسبها جيداً، لأنه سينال جراء ارتكابه تلك الجريمة حكماً بعشر سنوات إضافية فقط، فالأحكام على الجرائم التي تحدث داخل السجن تكون أخف من تلك التي تحدث خارجه، وهذا أفضل له، مما لو ثبتت عليه جريمة القتل والسطو بحق أخي مظلوم.

كنت أصغي لما ذُكر مذهولاً، فأي ساذج سيفهم أن الأحكام المخففة هي إيذان بالقتل وتشجيع على الإقدام عليه؛ ولكن الصدمة الأكبر حلّت عليّ عندما أردف:

* يتوجب عليك أن تكون يقظاً ومتنبهاً لما تبقى من مدة حكمك.
* لماذا؟
* لأني سمعت من أحد السجناء أن (أبو حية)؛ ذكر له أنه سيقتل مظلوماً و(الملا) ويعنيك أنت بذلك، فهو أراد طمس الجريمة بقتلك أنت ومظلوم؛ أبو حية سيقضي عدة أشهر في المحجر ثم سيحاكم، وبعدها سينقل إلى الثقيلة، ولن تكون له فرصة لينال منك؛ لكن الخطر لا يزال قائماً من طرف أخيه الذي يكنى (أبو عقرب) وكل ذلك لأنك قبلت أن تشهد لمظلوم.

لم تصدق أذناي ما سمعتا، ورحت أتطلع في وجوه المجتمعين حولي، فشاهدت لسان حالهم يؤكد ما قيل، إذن ينبغي الاحتراس من (أبو عقرب) لغاية الافراج عني، ولحسن حظي أنه في ردهة أخرى، وهذا سيمنحني اثنتي عشرة ساعة من الطمأنينة كل يوم؛ أما الخطر فيكمن في النصف الثاني من اليوم حين تفتح أبواب الردهات ويجري الاختلاط بين النزلاء؛ فقال لي عامر:

* ملّا! سنتدبر لك سكيناً لتدافع بها عن نفسك.
* أو تظن أن ذلك يليق بي؟ إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين أجله.
* أنت ترى الأمور بطريقة مغايرة عما نراها نحن، ولا أدعي أننا على صواب؛ فأنت رجل متعلم ومتدين؛ ولكن الحذر مطلوب.

وأمام إصراري على إيكال سلامتي إلى الله، تطوع عامر لمرافقتي وحمايتي؛ فشكرته على شهامته.

بعد يومين من ذلك خرجت إلى الباحة، كما في كل يوم فهي تمثل صماماً ومتنفساً لحالة الضنك والضيق الذي نشعر به داخل الردهات؛ كنت برفقة عامر، عندما أحسسنا بجلبة من ورائنا وإذا بشخص يندفع كالثور الهائج نحوي وبيده سكين كادت أن تصل إلى عنقي حينما تَوَقَتْها يد عامر؛ بينما استل بيده الأخرى سكيناً وطعن بها (أبو عقرب) في بطنه؛ وهكذا نجوت من موت محقق بفضل عامر والملكين الذين كانا يحرساني؛ لم تكن الطعنة نجلاء ونافذة؛ بل تعمد عامر أن تحدث شقاً طولياً في جلد المهاجم لغرض تحييده فقط؛ عدنا أدراجنا إلى القاعة، وبينما كان الحراس في طريقهم إلينا، قلت له:

* أنا ممتن لأنك أنقذت حياتي؛ ولكن ليس من الإنصاف أن تدخل المحجر من أجل قضية لا ناقة لك فيها ولا جمل، لذا سأقول لهم بأني أنا الذي طعنه.
* ملّا! وضعك لا يمَكِنك من الصمود داخل المحجر، ناهيك عن التعذيب الذي يسبقه.
* سأتخطى ذلك بإذن الله، ثم إنني في المحجر سأكون في مأمن من التعرض لهجوم آخر.

في نهاية المطاف تمكنت من إقناعه، ونزولاً عند طلبه، تناولت حبة (ڤـاليوم) مهدّئة، لأتمكن من تحمل التعذيب الذي سيطالني من قبل الحراس؛ وكانت نصيحته في محلها، فقد تناوب على ضربي ثلاثة من الحراس، ضرباً مبرحاً، شعرت به رغم تأثير الڤاليوم المهدئ؛ كانوا ساديين ويتلذذون بما يفعلونه، وعندما أجهدوا جروني جراً ورموني في المحجر، الذي كان عبارة عن غرفة أبعادها ستة في أربعة أمتار، حشر فيها خمسون معاقباً.

هأنذا أقايض أمني وسلامتي في هذا القبر لما تبقى من مدة حكمي، محروماً من الزيارات وحتى من الخروج لاستنشاق هواء خال من العطن الذي يحاصر أنفاسي، أو أن تسفع جلدي شمس وطني المستباح، تأملت سلسلة الأحداث التي قادتني إلى هنا، لأعثر على سبب وجيه لهذه المحنة؛ المحجر، السجن، الفاقة التي عشناها بينما نحن بلد نفطي، الحصار الذي فرضته علينا الأمم المتحدة، كل ذلك حلَّ على رؤوسنا؛ لأن القائد الضرورة المهووس بالعنف والذي لا يختلف عن (أبو حية) إن لم يكن أسوأ منه، غزا الكويت.

الحصة الغذائية التي تقدم لنا في المحجر لا تسد ربع احتياج إنسان بالغ، ولا يمكن للنزيل البقاء على قيد الحياة ولا يموت جوعاً، إلا إذا أتته مساعدات من الخارج؛ وكان لثامر وما بذله من المال الذي يعطيه لمجموعتي التي تكفلت بتمرير الطعام لي؛ موقفاً مشرفاً، جعلني أصمد كل تلك المدة؛ ومن المدهش أن تجد نزعة الخير مغروسة في أعماق أناس ارتكبوا جرائم متنوعة؛ القاتل مجرم في نظر القانون والشرع ذلك أمر لا غبار عليه؛ ولكن ثمة فرق بين من قتل لأجل إدراك ثأر يعتبره واجباً لا يمكن التنصل عنه، وبين شخص مثل (أبو حية) الذي يقتل من أجل السرقة؛ فالأول لن يتجرد من خصال الخير المزروعة بداخله؛ على خلاف الثاني.

أصبنا جميعاً بمرض السل، ونوبات السعال جعلتني أشعر بالاختناق والغثيان وأن الحجاب الحاجز فقد قدرته على العمل، والحمى ألهبت جسدي؛ مرت عليَّ أيام في المحجر كأنها دهر، كرهت فيها نفسي، وتمنيت لو أن عامراً والملكين تخليا عني في تلك اللحظة لأواجه الموت، بدلاً من العيش بحال؛ لا ترضاها الكلاب.

لم يلتفت لمرضنا ومعاناتنا أحد؛ فالحراس مشغولون عنا بجني الأرباح عن طريق نهب الأرزاق والعلاج وغض الطرف والتواطؤ عن تمرير الحبوب المخدرة، وعندما يشتكي أحد ما على سوء المعاملة، تكون الإجابة حاضرة: (لسنا السبب في وجودك هنا؛ بل ما اقترفته يداك، وحُكمُ القاضي، أنتم بالنسبة لنا مجرد ودائع لمدد محددة بحكم القاضي، وعندما يحين موعد الإفراج عنكم، نطلق سراحكم ولا شأن لنا بكم)؛ وهنا هرع ثامر لإنقاذي ثانية، بتمرير إبر العلاج.

**-13-**

مع بداية عام 1998، أطلق سراحي؛ خرجت هزيلاً وواهناً ومحطم النفس، كانت أمي وموسى وثامر وشقيقتي مريم في انتظاري، وشعرت بالحزن لأنني لا أستطيع حضنهم أو تقبيلهم خشية انتقال عدوى السل إليهم؛ كنت بحاجة إلى كتف أمي لأسند عليه رأسي المثقل بألم ومرارة السجن، والذي لن تبخل به عليَّ حتى مع خطورة انتقال المرض؛ لكني حذرتها من الاقتراب مني؛ ذهبنا جميعاً إلى بيت ثامر الذي أصبح بيت شقيقتي مريم، ودخلت الحمام واستبدلت جميع ملابسي بأخرى هيأوها لي، ثم أحرقوا الملابس القديمة، وعصر ذلك اليوم عرضوني على طبيب متخصص، والذي أكد بأني أمر بدور النقاهة، ومازال خطر انتقال العدوى موجوداً وإن بنسبة أقل، وهكذا أكون قد خرجت من محجر إلى آخر؛ كانت أخبار أهلي مطمئنة فعمي بخير، وسيلتحق بأسرتنا فردان، فبتول حامل مرة أخرى، وكذلك مريم، وسأصبح عما قريب، عماً وخالاً بذات الوقت؛ لكن الخبر الذي أدخل السرور إلى قلبي، هو اقتراح ثامر أن نكون شركاء بمصنع صغير لإنتاج الحلوى، يجهزه هو، بينما أتكفل أنا إدارته، وتكون الأرباح مناصفة بيننا؛ لأنه رأى وبحدس تاجر متمرس أن الحلوى لها سوق رائجة عندنا، وأرباحها كبيرة، إلا أني ارتأيت أن يؤجل الموضوع لغاية حسم موقفي من الخدمة العسكرية، فما زال أمام قرابة عام لكي أنهيها.

ألح علينا ثامر للبقاء في بغداد لمتابعة علاجي وعرضي على الطبيب؛ فمكثت أنا وأمي أسبوعين في بغداد، نفضت روحي خلالهما ما علق بها من أدران؛ إلا واحداً ما زالت تنأى بحمله وينبغي رفعه عنها، وهو كشف التفاصيل المتعلقة بالجريمة التي أدين بها مظلوم، فطيفه ما فتئ يحوم في وجداني.

صبيحة يوم الجمعة سافرت إلى النجف وقصدت الشركة التي يديرها أخو مظلوم، وجدته جالساً في مكتبه، وعندما تطلعت في وجهه رأيت طيف مظلوم يرفرف على قسماته لشدة الشبه بينهما؛ استقبلني بدماثة بائع محترف مع زبون مفترض، وطلب من العامل تقديم قدح شاي لي؛ بينما كنت أرتب في داخلي ما كنت ناوياً قوله، بادرني بالسؤال:

* بأي شيء نخدمك؟
* بل أنا في خدمتكم!

تطلع إليَّ بنظرة مستفهمة، وقال:

* العفو!

أخذت أسرد له الحقائق تباعاً، وكان يهز رأسه متأثراً، ومع نهاية حديثي أخذ ينتحب ويلطم صدره، كان يشعر بأسى مضاعفاً لموت أخيه وظلمهم له، وبعد أن خفَّت نوبة حزنه، شكرني على موقفي، وعرض ضيافته عليَّ؛ فتملصت منه بشق الأنفس؛ كان موعد صلاة الظهر قد اقترب، وعزمت على أدائها في حرم أمير المؤمنين، فضلاً عن أداء الزيارة؛ وهناك صادفني زحام شديد وتدافع، ولا سيما مع مرور سيد معمم بلحية بيضاء، فعرفت أنه السيد محمد الصدر، الذي شرع بإحياء صلاة الجمعة.

رجعت إلى البيت؛ وبعد عدة أيام ذهبت إلى وحدتي وسلمتهم مقتبس الحكم والافراج، وباشرت بالدوام.

مر علينا عام 1998، ووضعنا المادي طرأ عليه بعض التحسن، بفضل ما ترسله لنا أختي مريم من إعانة، وكان حديث الناس وشغلهم الشاغل؛ هو صلاة الجمعة التي دعا لإقامتها السيد الصدر، والتي لبّاها جمع كبير من الناس؛ بينما قاطعها أخرون كانوا ينظرون إليها بريبة وحذر؛ كنت ممن لبى الدعوة للصلاة التي تقام عند جامع حجي جليل؛ لأنها جعلتني أعبر عن مشاعري المكبوتة بداخلي، وسط هذا الحشد الذي يزرع القلق والخوف بموات وبقية الرفاق الحزبيين الذين اعتلوا البنايات المحيطة بالمصلين وهم مدججين برشاشات الكلاشنكوف والقناصات؛ فذكرى أحداث الانتفاضة الشعبانية قبل سبع سنوات؛ ما زالت متوقدة في أذهانهم؛ تزامنت تلك الأحداث مع إطلاق النظام حملة لقطع رقاب العاهرات في بيوت الدعارة؛ والذي نفذه فدائيو صدام الذين يقودهم عدي صدام حسين؛ الذي كان وللسخرية؛ متهتكاً، ويقيم سهرات ماجنة كل ليلة.

مع بداية شهر شباط من عام 1999 أتممت خدمتي الإلزامية، وذهبت إلى قلم الوحدة ليزودوني بكتاب تسريح إلى التجنيد؛ وقفت في طابور الجنود المراجعين، ولما بلغت شباك الغرفة بعد أن حلَّ دوري؛ بقي النائب ضابط المسؤول عن قلم الوحدة يحدق بي وكأنه لم يفهم ما قلته له؛ فكررت طلبي ثانية، فرد ببرود:

* راجعني غداً فلدي اليوم عمل كثير لأنجزه والورق لا يكفي لمزيد من المعاملات.

غادرت الشباك ممتعضاً، فقد سددت ديني للدولة ولست مستعداً لهدر ولو ساعة واحدة أكثر مما ينبغي، وعندما سمع أحد زملائي من الجنود تبرمي، سألني:

* عزيزي، أنت لم تتبع الخطوات المطلوبة.
* أية خطوات؟
* أن تشتري بند ورق من المكتبة المقابلة لباب الوحدة، وتقدمها له.

ثم أطلق ضحكة صاخبة، وأردف:

* نفس ذلك البند سيرجعه لاحقاً للمكتبة؛ ويستوفي ثمنه، ليشتريه لاحقاً جندي آخر.

ذهبت مسرعاً للمكتبة واشتريت بند الورق وعدت إلى شباك قلم الوحدة وهذه المرة، مشت الأمور بسلاسة، ورٌفع الكتاب إلى مكتب آمر الوحدة ليوقعه، وطال انتظاري خارج الآمرية، مترقباً خروج البريد، لغاية انتهاء الدوام الرسمي؛ وعدت ذلك اليوم بخفي حنين، واستقبلني زميلي العسكري ثانية بابتسامة؛ فأدركت أني جانبت السياقات ثانية، وقال:

* لا عليك، غداً احضر معك عشرة آلاف دينار، وسلمها للمراسل، ولا تنس أن تهدي المراسل علبة سجائر.

في اليوم التالي عدت حاملاً معي عشرة آلاف دينار، بعد أن افرغت جيوب عائلتي من مدخراتها، وفي داخلي كِلت أقذع الشتائم لهذا النظام الذي يتغاضى عن فساد المؤسسات والرشى المتفشية في مفاصله ويلاحق شخصاً مثلي ويسجنه لأنه عمل لتوفير لقمة كريمة لأهله.

بعد أسبوع من ذلك، ختمت صفحة التسريح في ذلك الدفتر الأحمر اللعين، الذي سيرافقني ويكون بمثابة جواز سفر للتنقل بين مدينة وأخرى، بل وحتى بين أحياء القضاء أحياناً، بلغت الآن الثامنة والعشرين من العمر، وأحاول الخطو في دجى هذه الدنيا وظلماتها، بمؤازرة من أهلي ولا سيما ثامر الذي لا يزال مشروعه لمعمل الحلوى قائماً، يحدوني الأمل بأن الجور والظلم سيزولان في نهاية المطاف، ويتعاظم ذلك الأمل بتعاظم الحضور في كل صلاة جمعة، في كل المدن المهمشة من هذا الوطن الجريح.

رجعت إلى البيت بعد أن أديت صلاة الجمعة تلك، ثم أخذت كعادتي قيلولة تعقب الغداء، فأيقظني موسى وفي حنجرته غصة، وقال:

* لقد اغتالوا السيد الصدر ونجليه.

كان خبرا صادماً، لكنه متوقع كذلك؛ فصدام الذي خلع التحالف أنيابه، أبقوا له مخالبه لتلحق الضرر بأبناء شعبه؛ وحينذاك فقدت الأمل بأي شكل من التغيير، وأن حكم هذه الطغمة سيمتد طويلاً؛ وستتحقق تلك النكتة التي تقول: إن شخصاً ملَّ من حكم صدام والهتافات له: (هلا هلا بأبو حلا)، فجمد نفسه ليعود إلى الحياة بعد خمسين عاماً ليسمع الناس تهتف: (هلا هلا بابن حلا).

بعد الاغتيال، حدثت صدامات في بعض الأماكن؛ جرى إخمادها بسرعة؛ ولكن الدعوة لإقامة صلاة الجمعة بقيت قائمة؛ ووضِعَت أجهزة الأمن والحزب في حالة الاستنفار، لمنع الناس من أداء الصلاة عند جامع حجي جليل، وقطعوا الجسر لذلك الغرض، وجرى اعتقال بعضاً منهم، وفي النهاية انفض الناس، ولم تقع حوادث كبيرة مثلما جرى في مدينة العمارة حيث قُتل بعض المحتشدين، وجُرح آخرون جرى إعدامهم لاحقاً، وللتنكيل بهم أكثر هُدِمًتْ بيوتهم؛ كنت حينها مسافراً إلى بيت أختي مريم في بغداد، للتباحث مع ثامر حول مصنع الحلوى، عندما فاجأنا وصول موسى في ساعة مبكرة على غير موعد؛ كان وجهه متكدراً، وأفصح مباشرة عما جاء من أجله، إذ قال:

* مساء أمس داهم بيتنا رجال الأمن؛ إنهم يبحثون عنك.
* عني! لماذا؟
* في ساعة متأخرة من يوم الجمعة، ألقيت رمانة يدوية على الفرقة الحزبية القريبة منا، رماها شخص وفر هارباً، الحادث لم يسفر عن إصابات؛ ولكنه لم يمر دون تحقيق لمعرفة الجناة، لذا فإن الأمن يبحث عن جناة مفترضين، وأنت أحدهم؛ وعندي يقين أن مواتاً خلف استهدافك.

كان وقع الخبر مهولاً علينا، وإن كان مجرد ظن ولا يوجد شيء يؤكد ضلوعي بالحادث؛ ولكن لا أمان في مديرية الأمن، فكم من بريء مات أو اعترف بذنب لم يقترفه لأن جسده لم يعنه على تحمل التعذيب، ويفضل الموت لأنه أكثر رحمة وشفقة من التعذيب؛ مثلما يفعل البغل عندما يرمي بنفسه من شاهق؛ وأنا وصلت إلى حافة الصبر والتحمل، ولا يمكنني تحمل مزيداً من الألم والقهر والظلم؛ كان أمامي عدة خيارات على رأسها الرحيل عن هذا البلد الذي أثخنني نظامه بجراح ينكأها كلما بلغت قريبة من الشفاء؛ إلا أن ثامراً اقترح علي البقاء عنده، وسينصب مصنع الحلوى هنا في بغداد وليس في قضاء المجر، أما بالنسبة لموضوعي؛ فبغداد مدينة كبيرة يستطيع المرء التخفي وسط الملايين من سكانها، وكل شيء يمكن حله بالمال حينما يقع؛ نال اقتراح ثامر قبول موسى ومريم، وحسناً فعلنا، لأن الأشخاص الستة المتهمين بذات القضية مكثوا عاماً كاملاً في مديرية الأمن قبل أن يطلق سراحهم؛ وهكذا بدأت حياتي فصلاً ومنعطفاً آخر، باشرت العمل وأخذت الأرباح تتدفق، ومع بداية الألفية الثالثة، كنت أمتلك بيتي الخاص وسيارتي الحديثة، وأصبحت أباً بعد أن تزوجت من فتاة رشحتها لي شقيقتي مريم، وقد تَفَهَّم والدها أني لا أستطيع تسجيل زواجنا في المحكمة واكتفينا بالعقد الشرعي؛ واضطررنا لتسجيل مولودنا البكر باسم ثامر.

ومرت الأيام، وكانت فيها يد النظام تشتد على الناس، وأجهزتها القمعية تحصي على الناس أنفاسهم؛ عدي -الابن البكر للرئيس- ينشئ دولة موازية مقرها اللجنة الأولمبية، وجيشاً هم فدائيو صدام، وسجناً في الرضوانية ومحطة تلفزيون وجريدة، ويتحكم في الرياضة والفن، ويعقد الصفقات التجارية؛ وضاقت السبل على الناس ورام الكثير، الهجرة مفضلين دفع رسم الجواز الباهظ البالغ أربعمائة ألف دينار في الوقت الذي كان متوسط راتب الموظف لا يزيد عن عشرين ألف دينار؛ رحلت العقول وأصحاب المهارات وتشتتوا في أصقاع الأرض؛ أما الناظر من الخارج لما يجري في العراق، فكان يرى الدولة تتآكل وتنحدر نحو خط النهاية؛ كانت الأطباق اللاقطة ممنوعة حتى لا يتعرف الناس على ما يجري في العالم، وأن يصغوا فقط إلى سردية السلطة عبر وسائل إعلامها؛ أما أنا فكنت مطلعاً؛ لأني حصلت على لاقط، ونصبت صحنه على سطح المصنع بطريقة مخفية؛ كانت الفضائيات التي أقلبها تمنحني نافذة على العالم الذي حُرمت من التجوال فيه على أرض الواقع، فبضغطة زر واحدة على جهاز التحكم، تنتقل إلى بلد ثانٍ.

وذات يوم اشتريت جرو كلب من نوع شيبارد الألماني، تلك الفصيلة الرائعة التي يتعامل معها المرء وكأنهم من البشر لحدة ذكائهم وولائهم، وكان يرافقني أينما ذهبت، ولأن المصنع يصنف مصنعاً غذائياً، ويخضع لرقابة ممثلين عن الصحة، ويعد وجود الكلب مخالفاً لشروط الصحة، لذا كنت أصعده إلى سطح المصنع.

وذات مرة تفاجأت بقدوم ثلاثة من رجال الأمن بهيئاتهم العدائية المتوثبة، وكل ظني أنهم أتوا من أجل قضيتي، فشعرت بتجمد الدماء في عروقي؛ كنت استشرف مستقبلي، سيقتلعني هؤلاء من جنتي هذه ويرموني في زنازينهم العفنة، ولم يكن بيدي إلا الدعاء إلى الله ليخلصني من براثنهم؛ سألني أحدهم بنبرة متعالية:

* جاءنا بلاغ أنك تحتفظ بلاقط أقمار فضائية على سطح المصنع.

كانت تلك تهمة أقل وقعاً بكثير من تهمة إلقاء الرمانة اليدوية على الفرقة الحزبية؛ ولكن من يضمن لي ألّا يقودهم التحقيق معي إليها.

ولأن عقل الانسان يتفاعل مع المخاطر ويتحفز لردات الفعل ليتخلص منها؛ قلت له وعلى وجهي ارتسمت ابتسامة دمثة:

* عندي في الأعلى كلب من نوع شيبارد الألماني وهو شرس جداً، فتفضلوا اجلسوا في المكتب ريثما أرسل أحد العمال ليبعده عن السطح.

انطلت عليهم خديعتي وجلسوا في المكتب، وفي تلك الأثناء أرسلت أحد عمالي ليفكك اللاقط، ويخفيه عن أنظارهم ثم ينزل الكلب؛ بينما أمرت عاملاً آخر ليهيئ ثلاثة علب من الحلوى هدية لهؤلاء الأوغاد الذين تخلوا عن سحناتهم العابسة فجأة؛ قلت لهم لألهيهم:

* شعارنا هو، إن أعجبك منتوجنا فأخبر الآخرين، أما إذا لم يعجبك فأخبرنا نحن لكي نحسن الجودة.

رد أحدهم:

* شعار فيه حكمة عميقة.

نزل العامل مع الكلب وتوجه به إلى خارج المصنع، وحينها أشرت عليهم بالصعود إلى السطح، لينجزوا مهمة التفتيش، بعدها غادروا، فتنفست الصعداء، ومن حينها لم أنصب اللاقط ثانية إلا مع بدء عملية غزو العراق؛ حرمت من إطلالتي على العالم، إلا أن عملي وعائلتي وبغداد كانوا عالمي الجميل، وكان كل شيء يشي بأن نذر الحرب قادمة لا محالة، فبعد ستة أشهر بدأ الغزو على العراق الذي لم يصمد جيشه المتهالك أمام الآلة الفتاكة؛ كانت الفضائيات تبث تقهقر القوات العراقية، بل اختفاءها بعد خلع الجنود والضباط ملابسهم العسكرية، وارتداء (الدشداشات)؛ بينما كان الصحاف - وزير إعلام النظام- يؤكد على اندحار العلوج عند أسوار بغداد.

ذلك اليوم سمعت طرقات قوية على بابي، فهرعت لأرى من الطارق، ولما فتحته وجدت أمامي ضابطاً برتبة مقدم في الحرس الجمهوري، ترجاني أن أعطيه ملابس مدنية، فأدخلته وعرضت عليه ضيافتي، غير أنه اكتفى بالملابس المدنية وغادر بعد أن منحني بندقيته الكلاشينكوف ومسدسه من نوع طارق 9 ملم منقوش عليه "هدية الرئيس القائد صدام حسين لمن دافع عن وطنه" كانت الهزيمة قد توضحت ملامحها، وصمتت الآلة الإعلامية أمام هدير الدبابات الأمريكية التي جابت شوارع بغداد؛ كانت فرحتي بسقوط النظام يقابلها حزن لأجل احتلال العراق؛ لكني التزمت بما توارد عن السيد السيستاني الذي كنت أقلده؛ بأن تلك المعركة بين ظالمَين.

خرجت حشود من الناس مهللة لسقوط الصنم؛ وبعد ساعات من الفرح أخذت الأمور تسير بمنحى آخر، إذ بدأت عمليات السلب والنهب تطال المؤسسات الحكومية؛ كانوا كالجراد يقتحمون الأمكنة ويتركوها يباباً؛ وخشيت أن يطال النهب المصنع، ولا سيما أن الحارس غير مسلح، فأخذت البندقية التي منحني إياها الضابط وتوجهت إلى المصنع، وصعدت إلى السطح أراقب منه الأرجاء، وصدق حدسي عندما جاءت مجموعة من السراق متهيأة للنهب، فأطلقت عليهم بضع رصاصات فانكفأوا من حيث أتوا؛ حلّت بعدها أيام عصيبة، من قتل بدوافع السرقة أو الثأر، إلى الاختطاف من أجل الحصول على فدية، وضاع الحابل بالنابل، وبعد شهرين ارتأيت إقفال المصنع لغاية اللحظة التي تستقر فيها الأمور، بعد أن ضاعفت الحراسة عليه.

كانت لي عند بعض التجار في منطقة جميلة أموال، فذهبت لأستوفي منهم ما يستطيعون سداده لي، فالأوضاع لم تستقر بعد، وهكذا كان، فمنهم من اعتذر عن السداد ومنهم من أعطاني جزءًا مما في ذمته؛ كنت أتجول حاملاً معي المسدس -هدية صدام حسين- تحوطاً لأي طارئ، وقصدت آخر تاجر مديناً لي، وكانت تربطني به علاقة مائزة لأنه ينحدر من محافظة ميسان كذلك؛ أعطاني نصف الدين الذي بذمته، ووعدني خيراً وعندما هممت بالمغادرة وقع نظري على رجل مسن تخطى الخامسة والستين من العمر، كثير الشبه بموات، كانت تفصلني عنه قرابة عشرين متراً، فأخذت نبضات قلبي تتسارع، وخطوت نحوه لأتيقن إن كان هو أم شخصاً آخر يشبهه، وكان التاجر يشيعني إلى الباب، ومع كل خطوة أقترب بها منه؛ يتجلى لي موات أكثر فأكثر، إنه هو ورب السماء، لقد ميزته رغم إطلاقه للحيته وتَرْكِ شعره الأشيب من دون الصبغ الذي لم يفارق شعره مذ عرفته؛ عندها ثارت ثائرتي ومن دون وعي، تجردتُ من عقلي وانحزت لقلبي؛ لأثأر لآلامه ومواجعه؛ وسحبت المسدس وألقمته رصاصة ووضعت فوهته عند منتصف جبهته؛ فتجمد موات كصنم دون أن ينبس بحرف واحد؛ وفي لحظات قصيرة استعرض عقلي شريط حياتي وكل ما حلَّ بي من المآسي بسبب هذا الرجل، ومرت لحظات لا أتذكر منها شيئاً، وكنت على وشك الضغط على الزناد عندما أعادتني إلى وعيي ثانية صرخة التاجر متوسلاً:

* (مروتك)، ليس أمام مخزني.

فانطفأت جذوة غضبي وأرخيت قبضتي على المسدس، ثم أعدته إلى حزامي، وقلت لموات:

* لن ألوث يدي بدمك القذر، سأوكل أمرك إلى الله، كما كنت أفعل في السابق.

وغادرت وسط دهشة كل من كان هناك.

**-14-**

**بغداد صيف عام 2003**

توقفت سيارة أمام أحد البيوت الذي خطت على جداره عنوان حركة تسمى الشهداء، وترجل منها أربعة مسلحين في مقتبل شبابهم؛ وهم يجرّون بعنف رجلاً ستينياً بلحية غزاها الشيب؛ يرتدي دشداشة فوقها سترة؛ ويلف إشماغاً على رأسه؛ أجلسوه على كرسي وأوثقوه إليه في إحدى الغرف التي كانت خالية من الشبابيك؛ وخلال دقيقة واحدة أسدوا إلى وجهه المتغضن عدة لكمات؛ فتغيرت ملامحه وانتفخ؛ حتى غارت عيناه وسط تلك الانتفاخات؛ إلا أن الشاب الثلاثيني الذي دخل عليهم، أمرهم بالتوقف عن ضربه؛ ونظر ملياً إلى الرجل الموثوق على الكرسي؛ ثم قال بتشفٍ:

* إييي يموات؛ شفت شلون الدنيا دوارة؟ للباطل جولة، وللحق دولة.

ثم دعاهم لحل وثاقه وتضميد الجراح التي الحقوها به؛ وسأله:

* أتود أن أجلب لك طعاماً أو أي شيء آخر؟

فقال بصوت متهدج:

* لست جائعاً؛ ولكن سأكون ممتناً لسيجارة وكأس شاي.

كانت يداه ترتجفان وهو يرتشف كأس الشاي؛ وكان الشاب يجلس في قبالته وتفصل بينهما طاولة صغيرة؛ بقي الشاب صامتاً لحين انتهاء موات من شرب الشاي وتدخين آخر نفس من سيجارته؛ حينها سأله:

* هل عرفتني يا موات؟

حدج موات في وجهه ملياً؛ ثم هز رأسه بالنفي؛ فقال الشاب:

* أنا عليّ إبن عبد السادة مانع؛ الذي أعدمتموه في ملعب المجر أمام عينيَّ؛ ثم رميتم جثته على عتبة بابنا، وطالبتمونا بثمن الرصاص الذي أطلقتموه على جسده؛ أتذكر ذلك أم نسيت؟

لاذ موات بالصمت؛ الذي كسره علي:

* سأعقد معك صفقة يا موات؛ سأضمن لك محاكمة عادلة دون أن يمسسك أحد؛ مقابل الاعتراف بجرائمك، وتجيب على أسئلتي؛ فهل أنت موافق؟ أم أتركك لهم لينهشوك نهشاً؟

هز موات رأسه موافقاً؛ فهو يدرك أن لا شيء يتعلق به للنجاة بحياته، لا حبل ولا حتى خيط؛ وثمة فرق بين ميتة وأخرى:

* فلنبدأ بك أولاً؛ أنت متهم برفع تقرير عن أبيك إلى الحزب تسبب بإعدامه؛ فما الذي دفعك لهذا الفعل؟ من يفعل بأبيه مثل ذلك؟!
* إنه ليس أبي؛ الكل يعرف ذلك.
* إذن أنت تؤكد ما كان يشاع عنك بأنك لقيط!
* أجل؛ ولا أرى بذلك أي حرج؛ كلنا أتينا إلى الدنيا بذات الطريقة؛ أقصد الممارسة الجنسية بين رجل وامرأة؛ وكل الطقوس الأخرى هي لتبرير تلك الممارسة ليس إلا، ولربما أنا أفضل من كثيرين؛ فأنا نتاج ثمرة حب أو تراضٍ بين شخصين رفض المجتمع أن يرتبطا مع بعضهما؛ في حين يولد آخرون من نساء أجبرن على الاقتران برجال لم يرغبن بهم.

بقي عليٌّ صامتاً وهو يحاول إخفاء ذهوله من منطق هذا الرجل؛ أنى لنغلٍ قاسي القلب أن يمتلك مثل تلك الحكمة وأدوات الإقناع؟

اسرد لنا حكايتك من أولها:

* عَثَرَ عليَّ الحاج طعيمة، خلف ماكينة الطحن التي يمتلكها؛ ملفوفاً بعناية وموضعاً في سلة من الخوص؛ ويبدو أن الذي وضعني هناك؛ لم يدرك أن هدير ماكينة الطحن كان يغطي على صوت بكائي، فمكثت لفترة طويلة قبل أن يلمح الحاج وجودي، وقد بدوت له ميتاً لأول وهلة، فأخذني إلى بيته، وربيت عنده، وأتبعني في سجل عائلته.
* وتجازيه بكتابة تقرير عنه!
* خدمت الحاج طعيمة خمسة وعشرين عاماً على أنه أبي؛ حتى أنه أوكل إليَّ أعمال المطحنة كلها، ثم يفاجئني ذات يوم؛ بأن فرَّق أملاكه كلها على بقية إخوتي وحرمني من كل شيء؛ عندها استشاط غضبي، وسألته لم فعل بي ذلك؟ فحكى لي حقيقة مولدي الذي كنت أجهله، مبرراً فعلته بأن الشرع لا يسمح له بتوريثي، وأن مجرد إلحاقي بنسبه هو إثم؛ ومن حينها تبدل كل شيء بداخلي، كان قلبي موجراً بالسخط؛ لأنها صدمة مضاعفة؛ ففجأة بعد خمسة وعشرين عاماً تشعر أن الأرض الرحبة التي كنت تضع عليها قدميك، قد تحولت إلى حبل معلق بين عمودين، ويتطلب بلوغ نهايتها، مهارة بهلوان؛ ملأ الغيظ قلبي؛ وكان الحاج يسب النظام ويشتم الحزب؛ لم أكن حينذاك بعثياً؛ فأبلغت أحد الرفاق بذلك، وهو الذي زودني بجهاز تسجيل للصوت؛ وهكذا أخذوا الحاج.
* كنت تردد أن رئتيك تتنفسان البعث، وأنك ابنه البار؛ أتنكر ذلك؟
* لا أنكر ذلك؛ ولكن لو سألتني عن السبب لأجبتك!
* أجبني!
* بعد حادثة الحاج طعيمة تلك؛ شاع الخبر بين جميع الناس بأني لقيط، ابن زنا؛ وبالطبع كانت تلك المعلومة يعرفها نطاق ضيق من الناس قبل الحادثة؛ لكنها أضحت على لسان كل مجراوي، فصاروا ينظرون إليَّ بازدراء ويتجنبون مخالطتي؛ إلا الحزب الذي رحب بي وضمني بين صفوفه، وأصبحت أرتقي درجات القيادة فيه، درجة تلو أخرى؛ منحني الحزب راتباً يعادل عشرة أضعاف راتب المهندس؛ منحوني قطعة أرض في أرقى المناطق، منحوني سيارة يحلم باقتنائها الأثرياء فما بالك بغيرهم، ولو عددت لك ما منحوني، لطالت القائمة.
* ولكن في مقابل ذلك تسببت بهلاك كثيرين؛ من شيوعيين وحزب دعوة، وفارين من الجيش -مثل أبي- فما أحرزته أنت أُزهِقَتْ مقابله أرواح البشر وترملت بسببه النساء وتيتمت الأطفال.
* الحزب كان يمثل الوطن؛ وهو وضعني في أعلى المراتب لأني أخلصت له وحاربت كل الأفكار الهدامة التي حاولت النيل منه؛ هل كان بيني وبين أبيك عداوة شخصية أو ثأر ما؟ بالكاد كنت أعرفه! هل أعدم من غير جريرة اقترفها؟ ألا يُذكر في القرآن "فلا تولوهم الأدبار"!
* ههه؛ تلك الآية تخص القتال مع الكفار؛ إلا إن كنت تعتقد أن إيران كافرة!
* كانت بيننا وبينهم حربٌ؛ ورفضوا الوساطات الكثيرة لإجراء الصلح ووقف إطلاق النار؛ ألا يذكر القرآن " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما".
* أراك متبحراً في الدين؛ فليتك أعدمت مع من أعدم من حزب الدعوة! لأنك ستلقى ذات المصير؛ والفرق أنك ستدخل جهنم؛ والذين أعدمهم نظامك؛ مثواهم الجنة.
* فلنفترض أني انتميت لحزب الدعوة؛ هل كانوا يرتضون تقديم ابن زنا ليؤم بهم الصلاة؟ وهل يقبل أحد منهم تزويجي بابنته أو بأخته؟ ولعله غير مسموح لأمثالي دخول الجنة!

لم يعرف عليٌ إن كان الرجل مؤمناً بما يقول؛ أم كانت تأخذه العزة بالإثم، ورأى ألا فائدة من هذا الحوار حول المتبنيات الفكرية؛ ولكنه أراد حلَّ بعض التصرفات التي بدت لغزاً محيراً:

* ما سر عداوتك مع عيسى إبراهيم ملا محمد؟ فأبوه كان زميلك في معمل السكر؛ ولاحقاً أخوه المهندس موسى؛ فضلاً عن كونهم جيرانك في القرية السكنية.

سحب نفساً عميقاً من سيجارته؛ ثم قال:

* كان السائد عندنا، أن الموظف الذي لا يرغب بالانتماء للحزب؛ تدور حوله علامات استفهام ولا سيما عندما يكون شديد التدين؛ كان شعارنا: (إما معنا، أو ضدنا)؛ ولكن للأمانة أقول أن لا إبراهيم؛ ولا عائلته لديهم أفكار معادية أو انتماءات حزبية؛ كانوا في حالهم؛ وهذا الاستنتاج توصلنا إليه بعد مراقبة طويلة؛ أما في ما يتعلق بعيسى؛ فعلى الرغم من أني كرهته؛ إلا أني لم أتجنَّ عليه؛ ألقيت القبض عليه عندما كان فاراً من الجيش؛ وأبلغت عنه عندما كان ينتج حلوى مغشوشة؛ والقضاء هو من حكم عليه؛ أما مذكرة إلقاء القبض بعد رمي الرمانة اليدوية على الفرقة الحزبية؛ فإنها لمجرد التحقيق ولم تكن تهمة مثبتة.
* ذكرت أنك تكره عيسى؛ فما السبب؟
* ذات مرة ذهبت لحضور انتخابات الحزب لاختيار قيادات جديدة للشعب؛ وكنت المرشح الأوفر حظاً لنيل الرتبة؛ وقبلهاً تحدثت مع قادة الفرق الذين سيدلون بأصواتهم؛ وكان كل شيء يشير بأني سأفوز؛ وفي الساعة المحددة بدأت الانتخابات بفتح باب الترشيح لمن يود خوضها؛ وعندما طرحت اسمي؛ انبرى أحد المرشحين ووقف أمام عضو القيادة؛ وقال :(السيد عضو القيادة المحترم؛ كلنا نعرف أن الرفيق عضو الفرقة -موات طعيمة- هو المسؤول الأمني لمزرعة السكر التي من ضمنها محطة خفض الجهد الكهربائي؛ التي فقدنا فيها قبل شهور الرفيق أبو عراق وأصيب ثلاثة آخرون؛ وفي اليوم الذي تلا الحادثة قُتل أربعة من حراس المحطة؛ فهل يعقل أن يعيًّن حارساً بصفة عقد وهو أساساً هارب من الخدمة العسكرية؟)؛ حينذاك استشاط عضو القيادة غضباً وحجب ترشيحي؛ وبذلك تحطمت آمالي؛ وكل ذلك بسبب عيسى إبراهيم، الذي بحثت عنه قرابة عامين؛ لكنه اختفى من غير أن يترك أثراً.
* هل أنت نادم على أفعالك؟
* لست نادماً؛ فقد كنت أنفذ الأوامر؛ ولكن للحق أقول؛ ثمة تصرفات خاطئة حدثت؛ وتمايز في الحزب؛ فهنالك عدة حلقات تمثل عدة مستويات تبلغ أهميتها من قربها من مركز الدائرة التي هي الرئيس؛ وكنا نحن أهل الجنوب نمثل الحلقة الأبعد.

اكتفى عليٌّ من استجواب موات وبلَّغ مجموعته بمهمة نقله إلى قضاء المجر؛ ليلقى جزاءه العادل أمام الملأ الذين ذاقوا الأمرين منه؛ كان بوده أن يسأل عن حادثة تلبس ابن عضو القيادة في وضع مخل مع ابنة موات، وكيف أرغموه على السكوت.

**الخاتمة**

رجعت إلى بيتنا في المجر، حيث أحضان أمي ودفئه، وأخي موسى بهدوئه المعهود وصخب أولادنا الذي ملأ أرجاء البيت حيوية، وزرت عمي الذي ما زال يخفض صوته عندما يأتي على ذكر صدام والبعثيين؛ رغم أن الزمن قد تجاوز مراحل الخوف؛ وبعد شهر من إقامتي في المجر تواردت الأنباء عن إلقاء القبض على موات، من قِبَلِ رجال المعارضة الذين تسنموا مقاليد الأمور، وأن حكماً بالإعدام سينفذ به عند الجسر؛ ذهبت لأتفرج على المشهد، وسبقني إلى هناك حشد كبير من الناس؛ ذكَّرني بذلك اليوم الذي أخرجونا فيه من المدرسة ليجعلونا نحضر إعدام الهاربين من الجيش، ومعي صديقي علي عبد السادة مانع، الذي شاهد تنفيذ الإعدام بحق أبيه.

من بين الجموع؛ شخصتُ شابة كانت تقف إلى يميني؛ كانت تلك هي ابنة موات، حضرت لتلقي نظرة أخيرة على أبيها، فشعرت بالحزن لأجلها ودارت في رأسي عشرات الأسئلة؛ ما الذي جعل الأمور تنحدر إلى هذه الخواتيم المؤلمة؟ فإن الله تعالى أودع في الانسان ميلاً فطرياً يدفعه نحو الخير بإرادته واختياره؛ فلماذا تسرب الشر إلى روح موات؟ هل يتحمل وزر الخطيئة التي أتت به إلى الدنيا؟ أم هو خطأ الحاج طعيمة عندما ألحقه بنسبه؟ وماذا لو تأخر الحاج طعيمة بضع دقائق أخرى، كانت كفيلة بموت ذلك الرضيع الذي سيصبح غولاً فيما بعد؟ وهل كان بوسع موات إفراغ كل حقده وسمومه لو أنه عاش في زمن لم يحكمه حزب ظالم، وحاكم جائر موهوم بأنه القائد الضرورة؛ ترك الأبواب مشرعة لأمثاله؟

يقول سيجموند فرويد أن نزعة الشر ليست مجرد انحراف أخلاقي؛ بل هي جزء متأصل في النفس البشرية؛ لكنها تقمع بواسطة القوانين والأخلاق والمجتمع.

**انتهت**